مغامرات الأخوة الأربعة

بحر المغامرات

بقلم
محمد أحمد برانق

مؤسسة المطبوعات الحديثة

مغامرات الأخوة الأربعة

(٤)

بحر المغامرات

بقلم

محمد أحمد برانق

مؤسسة المطبوعات الحديثة

شارع ماسبيرو رقم ٣ بالقاهرة

الجمهورية العربية المتحدة

فهرس

الموضوع | صفحة

تقـــديم

الفصل الأول ٧

١ ـــ المدينة الجـــديدة ٧

٢ ـــ اقتـــراح ١٤

٣ ـــ أمر غامض ١٨

٤ ـــ زيارة سمير ٢٥

٥ ـــ خطط مثيرة ٣١

الفصل الثانى ٣٦

١ ـــ بدء الرحلة ٣٦

٢ ـــ فى عـــرض البحر ٤٠

٣ ـــ نهاية الرحلة ٤٦

٤ ـــ الطائرة ٥١

٥ ـــ جولة استطلاعية ٥٦

الفصل الثالث ٦١

١ ـــ ماذا حدث فى الليل ؟ ٦١

٢ ـــ الأخوة فى مأزق ٦٧

٣ ـــ العاصفة ٧٣

٤ ـــ الزورق ٨١

٥ ـــ كيكى والاعداء ٨٥

الفصل الرابع ٩١

١ ـــ زائر آخر ٩١

٢ ـــ زورق جديد ٩٥

٣ ـــ الأعـــداء ٩٩

٤ ـــ البحـــيرة السرية ١٠٣

٥ ـــ الاستكشاف العجيب ١٠٧

الفصل الخامس ١١٧

١ ـــ إلى جزيرة الاعداء ١١٧

٢ ـــ الفرار ١٢٢

٣ ـــ قصة سمير ١٢٧

٤ ـــ العودة ١٣٣

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بحرُ المغامراتِ كتابٌ ترَى فيه كيف ذهب إخوةٌ أربعةٌ هم : طريفٌ ، وأسامةُ وإلهامُ ، وأنْسامُ ، ومعهم البَبْغاء كيكى لِقضاء العُطلةِ الصيفيةِ مع ابن خالتهم سمير . وسميرٌ ضابطٌ فى المُخابراتِ ، يحبُّ أبناء خالته ويحبونه ، ويُخلص لهم ويُخلِصُونَ له ، وهو يَعتبِرُهم إخوتَه الصِّغارَ ، فيستَصْحِبهم فى بعضِ رحلاتهِ . وكان على سمير أنْ يختفِيَ بعضَ الوقتِ عن أعْيُنِ أعدائِه الذين يُحتِّمُ عليه عملُه أن يُطارِدَهم ، فلم يجدْ وسيلةً خيْرًا من الذهاب إلى إحدى الجزُرِ المُنعَزِلَة فى صُحْبَةِ هؤلاءِ الإخوةِ الأربعةِ والبَبْغاءِ كيكى .

وبعد أن خرج الضابطُ سميرٌ مع الإخوة الأربعةِ الصغارِ إلى تلك الجزيرةِ وجدُوا أنفسهم مَسُوقِينَ إلى مُغامرة جديدة . فماذا يُمكِنُ أن يَحْدُثَ بين تلك الجزُرِ المُنْتَشِرَةِ فى جوفِ البحرِ ؟ .

لقد استطاعَ سميرٌ أن يُخمِّنَ شيئًا ، ودفع ثمنَ ذلك التخْمينِ ، وبَقِيَ الإخوةُ الأربعةُ وحْدَهُم على الجزيرةِ وهم يتوقَّعون أن يأتِيَ إليهم الأعْداء للقبضِ عليهم ..! وتتَوالَى المفاجآتُ والأحداثُ المثيرةُ حتى يبْدَأَ قلبُ القارئِ يَخفِقُ ويخفقُ... كما كان يَخْفِقُ قلبُ الصغيرةِ أنسامَ ، وتقومُ البَبْغاء كيكى بدَوْر كبير فى المُغامرةِ لا يقلُّ خطراً عن دَوْرِ الآخرين .

وسيَجدُ كُلُّ وَلد و بِنْت ـ مِن الَّذين يَقرءون هذا الكتابَ ـ أنَّهُ مَمْلوءٌ بالحَيَويَّةِ والإثارَةِ .

٢٧ فبراير ١٩٥٧

الفصل الأول

١ – المُرَبِّيَة الجَدِيدةُ

عندما بدأت العُطْلَةُ الصيفيةُ أُصيبَ الإخوةُ الأربعةُ : أسامةُ وإلهامُ وطريفُ وأنسامُ – بِمَرَضِ الحصبةِ ، وعانَوْا منه كثيراً وخاصَّةً طريفاً . وقد آذى إلهامَ التهابٌ فى عَيْنَيها نتج من مخالفتِها لنصيحةِ الطبيبِ . وكان قد أوصاهم ألاَّ يقرءوا فى أثناءِ مرضِهم . ولكن شغفَها بالقراءة أغراها بالمخالفةِ .

وقال طريفٌ : لقد مضى وقتٌ طويلٌ ونحن نلازمُ المنزلَ ولا نبرحُه . فى حين يتمتَّعُ جميعُ الأطفال بالعُطلَةِ .

فقالتْ أنسام : « إن هذه الحَصْبَةَ الملعونةَ هى السببُ فى ذلك كلِّه وقد أصيب بها أسامة فى أول الأمرِ ، ثم أُصيبت بها إلهام . وأُخذْتُها أنا منهما . وأخيراً أصابَتْ طريفاً » .

فقالتْ إلهامُ : « لقد كتب اللهُ لنا السلامةَ بفضل عنايةِ أُمِّنا بنا ، وشدَّةِ حِرْصِنا على تنفيذ ما أَمَرَ به الطبيبُ ، ولولاَ وَلَعُ إلهام الشديدُ بالقراءةِ والاطلاع لما التهبتْ عيناها . وأيّاً كان الأمرُ فقد بَرِئْنا ، ونحن نجتازُ فترةَ النقاهةِ الآنَ . وأعتقدُ أن الطبيب قسَا علينا عندما أَمَرَ بحَجْزِنا طولَ هذه المدة فى المنزل ، ولكن أمرَ الطبيبِ يجبُ أن يطَاعَ .... لقد مرَّتْ بنا هذه الفترة كأنها دهرٌ طويلٌ ! وقد آنَ الأوان لكي نَتَمَتَّعَ بعُطْلَتِنا .

فقال أسامةُ : « لقد أوصى الطبيبُ بأنه يجبُ أن نسافرَ إلى بعضِ الأماكنِ الخلَويّةِ للاستِفادةِ من تغييرِ الجوّ » .

فقالت أنسامُ : « إنّ والدتَنا مشغولةٌ فى هذه الأيامِ ، وأُرجّحُ أنها لن تستطيعَ أن تَصْحَبَنا إلى مكانٍ خَلَوىٍّ ، أو تسافرَ معنا إلى أيِّ مكانٍ على شاطئِ البحرِ . وأرجو ألاّ تُحْضِرَ لنا مُرَبِّيَةً لِتَصْحَبَنا » .

فصاح أسامةُ مُسْتَنْكِرًا : « مُرَبِّيَة !! إذا جاءتِ المُرَبِّيَةُ فلن أذهبَ معكم ! ومع ذلك فأنا أعتبرُ أنها لَن تقبلَ الاستمرار فى العملِ عندنا حينما ترى الفئرانَ التى أُدَرِّبُها الآنَ ! » .

ونظرتْ إلهامُ إليه غيرَ مُرْتاحة إلى ذِكرِ الفِئْرانِ . وكان أُسامةُ مُغرمًا بتأليفِ الحيواناتِ والحشَراتِ ، وله ولَعٌ شديدٌ بِدِراستِها ، ولذلك كان يحتفِظُ ببعضِها معه دائمًا ، ويقومُ بتدريبها على إطاعتهِ وعمل ما يأمُرُها به . وكانتْ أنسامُ تعتقدُ فيما بينها وبينَ نفسِها أنّه إذا قابلَ أُسامةُ نمرًا مفترسًا فى غابةٍ فإنه سيمدُّ يدَه إليه فى هدوءٍ ويُسْر ، وأنه بمُجَرَّد أن يمُدَّ يده إليه يَصيرُ قِطًّا أليفًا يَلعقُ يدَه فى سرورٍ واطمِئْنان ! وقالت إلهامُ لأُسامةَ : « لا تُحْضِرْ هذه الفئْرانَ الآنَ وإلاّ صرختُ » فقال أُسامةُ : « إذًا ، هيَّا اصرُخِى ! » ثم أطلقَ صفيرًا خافتًا ، فبرزَ رأسُ أحدِ الفئرانِ من فتْحَةِ قميصِه ، وصرختْ إلهامَ فزَعًا وقالت : « ما هذه الحيواناتُ التى تُربِّيها ؟ ! لو أنّ عندنا قِطّةً لقدَّمْتُ لها كلَّ هذه الفئرانِ لتأكُلَها » . فقال أُسامةُ : من حسنِ الحظِّ أنه ليس عندنا قططٌ » . فتدخّلتْ كيكي في الحديث معبِّرَةً عن رأيها : قطّة

قطيفة ! قطَّة قطيفة لطيفة ! . وأمالَتْ رأسَها وأخذَتْ تنظرُ فى اهتمام إلى الفأر . فقال لها طريفٌ : « إنه ليسَ قطَّةً أيَّتُها البلْهاء ، بل إنه فأرٌ » وكانتْ كيكى على استعداد فى هذه اللحظةِ للدخول فى مناقشة مع طريف ، فأطلقَتْ إحْدَى ضَحِكاتِها العاليةِ ، وأمالتْ رأسَها على الجانب الآخر ، وقالت : « كمْ مرَّةً أمرْتُك أن تُقفِلَ البابَ ؟ ! كم مرَّةً أمرتُك أن تمسحَ قدمَيْك ؟ ! ! اقفِلْ قدمَيْك امسَحِ البابَ ! اقفِلْ قدمَيْك !! » وصاحَ طريف : « كفى ! لقد اختلطَ عليكِ الأمرُ » وانفجرَ الجميعُ ضاحكين . فقد كان من دَوَاعِى تَسْلِيَتِهم أن تخطِئَ كيكى فى الأشياء التى تُحِبُّ أن تقولَها . وشعَرَتْ كيكى بالسرور عندما رأَتِ الإخوةَ يضحكون . فانطلقَتْ تُقَهْقِهُ بصوت عال أجَشّ . حتى قال لها طريفٌ : « كفى يا كيكى ! كفى ! » فطارت إلى النافذةِ ، ووقفت فوقَ سِتَارِها ، وأخذَت تصرُخُ مُقلِّدَةً صوتَ قاطرةِ السِّكةِ الحديديةِ . وأطلَّتْ أمُّ الأولادِ من فُرجةِ البابِ وقالت : أسْكِتُوا كيكى حتى لا تُصْدِرَ هذه الأصواتَ المزعجةَ ، فإن عندى ضيفةً أريدُ أن أحادِثَها » . فقال أسامةُ مُسرعاً : « مَنِ الذى أتى ؟ ! هل أحضَرتِ مُرَبِّيَةً لِتَصْحَبَنَا إلى رحلة لِتغيير الهواء ؟ ! » فقالت والدته : « نعم ! وهى هنا الآن » . فبدا عدمُ الرضا على وُجُوهِ الأولادِ . فقالت أمُّهم : « إنكم تعلمون أننى لا أملكُ الوقتَ الكافى لكى أصحَبَكم أنا بنفسى . وقد خرجتُم من هذا المرض وصحَّتُكم ضعيفةٌ ... » فقال أسامةُ : « إن صحَّتَنا ليست ضعيفةً ! » فصاحت كيكى على الفورِ . « قِطَّة قطيفة ضعيفة ! قِطَّة قطيفة لطيفة ! » ثم انطلقت تُقهقِه وقد سرَّها أن أضافَتْ كلمةً جديدةً إلى جُملَتِها . وصاح بها

طريفٌ لِيُسْكِتَهَا ، وقذَفَها بإحدَى الوسائدِ ثم قال لوالدته : « إننا نستطيعُ أن نذهَبَ وحدَنا فقد كبِرْنا وصِرْنا فى سنٍّ لا نحتاجُ فيها إلى حارس . ونستطيعُ أن نرْعَى شئُونَنا بأنفسنا » فقالت والدتُه : « إننى جرَّبْتُ . فما أكادُ أتركُكُمْ تغيبون عن عينى فى العُطلاتِ الصَّيفيةِ حتى تندَمِجُوا فى مُغَامرات يَقِفُّ(١) لها شعرُ الرأس.(٢) ولن أنسى ما حدث فى العُطلةِ الماضيةِ عندما ركبتم طائرةً غيرَ المخَصَّصةِ لكم ، وفقدنا كم وقتا طويلا فى واد مجهول » . فصاح أُسامةُ : « لقد كانَتْ هذه مُغامرةً رائعة . وكم أتمنَّى لو تُتَاحَ لنا مُغامرةٌ مثلُها ! لقد أضجَرَنِى طولُ المكثِ فى السريرِ ، وأرجو أن تسمحِى لنا بالذهاب وحْدَنا » . فقالتْ والدتُه : « لا ! ولكنكم ستذهبون إلى مكانٍ آمِنٍ بجوارِ البحرِ مع مُرَبِّيَة مُمْتازة لكى تقْضُوا عُطلةً هادئةً » .

وكانت كيكى تستمعُ إلى هذه المناقشةِ طولَ الوقتِ ، ويبْدُو أنها رأتْ من واجبها أن تتدخَّلَ مُتَسائِلَةً : « أين منديلُك ؟ ! » فقال طريفٌ : « إننى واثقٌ أن المرَبِّيَةَ لن تُحِبَّ كيكى ! هل أخبرتِها بأمرِ كيكى يا أمَّاه ! ؟ فأجابتْ والدتُه : « لا . لم أخبرها بعدُ ، ولكنى سآتِى بها إلى هنا لِأُقدِّمَكُمْ إليها . وسأُقدِّمُ لها كيكى » .

وخرجَتِ الأُمُّ من الحجرةِ وتركتِ الأطفالَ مَغيظِينَ . وقالت إلهامُ : « ها قد جاءَتِ المُرَبِّيَةُ ، وبدلاً من قضاء عُطْلة مَرِحَة سَنُضْطرُّ إلى الذَّهابِ مع هذه المُرَبِّيَةِ التى لا نُحبها » ؟ ثم استطردَتْ قائلةً : « أُسامة ! ألا تستطيعُ أن تفعلَ

(١) قف شعره : قام لشدة الخوف .

(٢) كان للاخوة الأربعة رحلة فى كل عطلة صيف ، وكانوا يقومون فى كل رحلة بمغامرة .

شيئاً بهذه الحيواناتِ الكريهةِ التى تُرَبِّيها عندما تدخلُ المُرَبِّيةُ ؟ إننى واثقة أنها ستُوَلِّى الأدبار[١] عندما تعلمُ أنك تحتفِظُ فى جُيوبك وملابسِك بهذه المجموعةِ من الفِئران » فصاح الجميعُ : « فكرةٌ مُدهشةٌ يا إلهامُ ! » وابتسمَ أُسامة لأختِه وقال : « إن أفكارَكِ ليستْ مُصيبةً دائماً ، ولكنَّ هذه الفكرةَ رائعةٌ » . ثم لم يلبثْ أن أطلَقَ صفيراً خافتاً من شفَتَيْه ، فلم تلبثْ أن ظهرَتِ الفِئْرَانُ البيضُ الثلاثةُ ، وتراجعَتْ إلهامُ إلى أقصى أركان الحُجرة وهى تُراقِبُها فى فزعٍ وخوف . وقال طريفٌ : « أظنُّ أنه من المُناسبِ أيضاً أن تشتَرِكَ كيكى فى هذا الاستعراضِ » . هيَّا يا كيكى ! . وأخذ طريفٌ يُقلِّدُ صوتَ صفيرِ القاطرةِ . وكانتْ هذه علامةً لكى تُقلِّدُ كيكى صوتَ قاطرةِ السكةِ الحديديةِ . فلم تكَدْ تسمعُ الصفيرَ حتى رفعتْ رأسَها سروراً ، واستعدَّتْ لإحداثِ ضجة عالية تُصِمّ الآذانَ . وتُوقظُ النائمين ، وتُزعِجُ الهادئين . فقد كان من النادرِ أن يَطْلُبَ منها أحدٌ تقليدَ صوت القاطرةِ . وأسرعَتْ أنسامُ تسُدُّ أذنَيْها بإصْبَعِها .

وانفتحَ البابُ فى هذه اللحْظَةِ ، ودخلتِ الوالدةُ ومعها امرأةٌ عابسة ، مُتَجَهِّمَةٌ ، فى وجهها صرامه وقسوة وأدركَ الأطفالُ أن العُطلةَ ستكون خاليةً من أىِّ شىءٍ مُثيرٍ أو غيرِ عادىٍّ مع هذه المُربيةِ . وجمالُ الرحلاتِ إنَّما هو فيما يتخلَّلها من طرائفَ وغرائبَ ومفاجآت . وقالتْ والدتهم : « هذه هى ..... »

---

(١) ستولى الأدبار : ستجرى خائفة

وضاعَ صَوْتها فى غمارِ الضَّجيج(١) الذى أحدثَتْه كيكى . فقد أطلقتْ لنفسها العنانَ استْجابةً لرغبة طريف ، وأحدثَتْ صفيراً مُزْعجاً .

وشهقت المُربِّيةُ ، وتراجعَتْ إلى الخلف فى دَهشة ، وأخذَتْ تَنظرُ إلى الأولاد لِترَى مَصْدرَ هذه الضجة ؛ فلم تَكُنْ قد رأَتْ كيكى من قبلُ ، وصاحتِ الوالدةُ : « كيكى ! كيف تسمحون لها بعمل ذلك أيها الأولادُ . ؟ ! إننى خَجِلةٌ منكم ! » وسكتَتْ كيكى ، ثم أمالتْ رأسَها على أحد الجانبَيْنِ وهى تتأمَّلُ المُرَبِّيَةَ . ثم صاحَتْ تأمُرُها : « امسحْ قدمَيْك ! اقفل البابَ ! أينَ منديلُك؟ ! كمْ مرَّةً أمرتُك .... ! » فصاحت الوالدةُ بطريف : « خُذْ كيكى وأخرِجْها من الحجرةِ . » ثم التفتَتْ إلى المُرَبيـة وقالتْ : « إننى آسفة ! إن كيكى ببغاء طريف ولكنها ليستْ سَيِّئةَ السُّلوك هكذا دائماً » فقالت المربيةُ : « إننى لستُ معتادةً معاملةَ البَبْغاوات ، ولا أظنُّ أن هذه البَبْغاء ستأتى مع الأولاد » . فصاحت كيكى : « ضع البرَّادَ على النارِ » ! فقالت الوالدةُ : « طريف ! هل سمعْتَ ما أمرتُك به ؟ ! أخرجْ كيكى من هنا ! » فأمسَكَ « طريفُ » كيكى وخرج وهو يغمزُ بعينَيْه لإخوته . وتنهَّدتْ والدته تنهدةَ الرَّاحة وقالت : « هذه هى أنسامُ .. تقدَّمى يا أنسامُ وصافِحِى مُرَبِّيتَك . وهذه إلهامُ . . . وهذا هو أسامةُ . . . » تقدَّمَ أسامةُ إلى المربية ، وقبلَ أن يمُدَّ يدَه إليها وقعتْ عينها على فأر يجرى فوقَ كتفه ! ! وآخرَ يُطلُّ من كُمِّ قميصه ! ! وكان الثالثُ يجرى داخل القميصِ مُحْدِثاً انتفاضاتٍ هنا وهناك ،

---

(١) فى غمار الضجيج : فى زحمة الصياح .

وَحَمْلَقَتِ المُرَبِّيَةُ فى رعب . فقال أُسامةُ فى غير اكْتراثٍ : إنّها فِئرانى الأليفةُ .

فقالت المُربيةُ لوالدته بصوت مُتهدجٍ مُتخاذل : « إنى آسفة يا سيدتى ! ويُؤسفنى كثيراً أن أقولَ لك : « إنى لا أستطيع أن أقبلَ هذه الوظيفة ، ولا أُحب أن أكونَ مُرافقة لهؤلاء الأولاد » .

٢١ فبراير ١٩٥٧

٢ — اقتراح

٢١ ٢ ١٩٥٧

خرجت المُربيةُ مُسرعةً من الحجرةِ . وودَّعتها الوالدةُ حتى بابِ المنزل الخارجى ، ثم عادتْ إلى الأطفال وقد بدا عليها الغضب . وقالت لهم : « لم يكنْ من اللائقِ أن تلقَوْا المُربيةَ أولَ لقاء بهذه الطريقة المنفِّرة . فكيف تتركُ كيكى تصيح هكذا يا طريفُ ؟! وأنت يا أسامة . . هل كان من الضرورىّ أن تظهر فئرانك فى تلك اللحظة ؟! » . فقال أسامةُ : « إنى لا أستطيعُ أن أفارقَ فئرانى ، ولذلك كان من الإنصاف أن تعلَمَ المُربّية من أول الأمرِ مسألةَ مُصاحبتها إياىَ لكى تعرِفَ ما هى مُقْدمةٌ عليه . . . » . فقالت والدتهُ : « إنى غاضبةٌ منكم جميعاً ، فقد تسببتمُ فى أن المُربيةَ لم تقبلِ العملَ هنا بعد أن سمعتْ ما سمعتْ ، وبعد أن رأتْ ما رأتْ ، وكنت أريدُ أن تسافروا حتى تستردوا صحتكم ، وتعود إليكم نضارتكم ، ويترقرق ماء الحياة فى وجوهكم .

فقال طريفٌ : « إن الرحلةَ مع تلك المُربية تكونُ مُملّةً ، ولا تردُّ صحّةً ، ولا تجلبُ نضارةً ، بل إن ماء الحياة ينضب[1] من وجوهنا إذا رافقتْنا .

---

(١) ينضب : يزول .

ونحن لن نخالفك يا أمّاه ، ولكننا نتوسلُ إليكِ أن تُعفينا من هذه الرحلةِ إذا كان لا بُدَّ أن تُرافقنا هذه السيدة .

أمّاه ! لو أن سميرًا . . . . »

ابتسم الجميعُ عندما سمعُوا اسمَ سمير ، فقد كان ابنُ خالتهم سميرْ اشترك معهم فى رحلاتهم السابقة . وقال أسامة : « نعم ! لو أننا نستطيعُ أن نسافرَ مع سميرٍ ! ! » . فقالتْ والدتُه : « ثم تَنْدَمِجُون فى مُغامرةٍ أُخرى معه ... ! أليْسَ كذلك ؟ ! » .

فقال أسامةُ : « إن سميرًا لا ذَنْبَ له فى هذه المغامراتِ ، ولكننّا نحْنُ الذين نَقعُ فيها وتدفعُنا الظروفُ ، فَنَجِـدُ أنفسَنا فى مأزقٍ . فلا نَقِفُ أمامَها ساكتين ، ولكننَّا نُفكِّرُ ... . نلتَمسُ لأنفسنا مَخْرَجاً أو نجاةً ، وكان اللهُ يسوقُ لنا سميراً ، فيجدُ نفسَه مُضْطرًّا لِلاشتراك معنا ، ولكنَّا لم نسمعْ شيئًا عنه مُنْذُ زَمنٍ طويلٍ جدًّا ! » .

وكان هذا صحيحاً . فقد بَدا كأنَّ سميرًا قد اخْتَفَى من الوجود ، ولم يَعُدْ يردُّ على خطابات الأولاد ، ولم يكُنْ موجوداً بمنزله ، بل إنه لم يذهبْ إليه منذ أسابيعَ كثيرة . ولكنَّ الأطفالَ لم يَقْلَقُوا عليه ، فقد كانوا يعرفون أنه كثيراً ما تكونُ لديْه مَهامٌ سريةٌ خطيرةٌ فيختفى وقتاً طويلاً ، ولكن غيابَه فى هذه المرة استمرَّ مُدَّةً طويلةً لم يغبْ مثلَها مِنْ قبلُ ، وكان الأولادُ يتوقَّعُون أن يظهرَ فجأةً فى أيَّةِ لحظة والابتسامةُ تملأُ وجهَه ، وتَمنَّوْا لو يَأْتى سميرٌ فى هذا اليوم نفسِه ، فقد يستطيعون عِنْدَئذ تدبيرَ أمرِ العُطلةِ الصَّيفيةِ والرِّحلةِ .

انْقَضَى اليَوْمُ ولم يَأْت سمـير . ونظرت الوالدةُ إلى أبنائها ثم قالتْ : « ما رَأْيُكُم فى الذهابِ إلى أىِّ مكان على شاطئِ البحرِ حيث تستطيعون دراسةَ الطيورِ البحرية والأحياءِ المائيَّةِ ؟ ! » فصاح طريف مسروراً : « هذا أحسنُ اقتراح سمعتُه حتى الآن ! . . »

ووافقه أسامةُ على ذلك وقال : « نعم ! إنها فكْرةٌ عظيمةٌ ! » . وضربِ المائدة بيَدِهِ ليُؤكدَ كلامَه وفى الوقت نفسه ضَرَبَتْ كيكى المائدةَ بِمِنقارِها مُعلنةً مُوافقتَها على هذا الكلام ، ثم قالتْ فى هدوءٍ : « ادخُلْ ! » ولكنَّ أحداً لم يلتفتْ إليها ، فقد كانت الفكرةُ مُثيرةً ، وكان سرورُ الأولادِ بها يصرِفُهم عن كلِّ شىءٍ وعن عَبَث كيكى . . . وخاصَّةً طريفاً ، لأنه كان مُغْرَماً بالطيور . وأُسامةُ ؛ لأنه يَهْوَى الحيواناتِ والطيورَ أيضاً . وبالرَّغمِ من أنَّ أنسامَ لم تكُنْ مُولَعَةً وَلَعاً شديداً بالطيورِ والحيوانات كأخوَيْها — فقد سرَّها أن وجدَتْهما فرحَيْنِ . ولكنَّ إلهامَ لم تكُنْ تُحبُّ الحيواناتِ ولا سيما تلك التى كان يُرَبِّيها أسامة ، ومع ذلك فإنَّها حينما تمثَّلَتِ الحياةَ الخَلَوِيَّةَ المُنطلقةَ التى سيعيشُونها - ابتسَمَتْ وتحمَّستْ لِلفكرةِ ، وأخذَ الجميعُ يتصايحُون : « هل نستطيعُ أن نذهبَ وَحدَنا ؟ . . . متى نذهبُ ؟ . . . هل تبدأ الرحلةُ غداً ؟ ! » . وفى أثناء ذلك جلسَتْ كيكى على كَتِف طريف ترقبُ الضجَّةَ فى سُرُور شديد . وأسرعتْ فئرانُ أسامةَ إلى الاختْباء مذعُورةً من ذلك الضجيج المفاجئ ! وقالت الوالدةُ : « أعطُونِى فُرْصةً لِكَىْ أوضِّحَ

لكُم الأمرَ ، إن هناك بَعْثةً علميــةً ستذهبُ إلى شاطئِ البحرِ بعد يومَينِ ، ويرْأسُ هذه البعْثةَ الدكتورُ جلال ، وسيصحبُ ابنَه معه » .

فقال أسامةُ : « الدكتور جلال !! لَقدْ كان مِنْ أعزِّ أصدقاء والدى » .

فقالت والدتهُ : « نعم . وقد اتَّصلَ بى فى الأسبوع الماضى وعرَضَ علىَّ أن يَصْحَبَكم معه ، ولكنى اعتذرت له لأنَّ صِحَّتكم لم تكُنْ تسمَحُ لكم بالسفر .. أما الآنَ .. » .

فصاح أُسامةُ وهو يَحْتَضِنُ والدتَه : « أما الآنَ فنستطيعُ أن نَذْهَبَ . . . لكنْ ! كيف فكَّرْتِ فى إحضارِ تلك المُربيَةِ وأنتِ تعلمين بأمرِ هذه البَعثة ؟! » .

فقالت والدتهُ : « إذا كنتم تريدون الذَّهابَ فسأتَّصِلُ بالدكتور جلال لعلَّه يستطيعُ أن يَضُمَّكم إلى الرحلة » .

فصاحَتْ أنسامُ : « لَيْسَ ذلك عَسيراً عليه ، إنه يستطيعُ أن يُدَبِّرَ هذا الأمرَ ، وسنكونُ رُفَقاءَ لابْنه » .

وشعرَ الأطفالُ بسعادة غامرة ، وأخذوا يتناقشُون فيما عَساهُم أن يفعلوا ، وكيف يَقْضون أوقاتَهم بينَ السِّباحةِ واللعبِ ومُراقبةِ الطيورِ ، وأَمْضَوْا بقيَّةَ اليوم فى مَرَحٍ وسُرور .

وفى اليَوم التالى بحَثَ أُسامةُ وطريفٌ عن منظارَيْهِمَا المُعظِّمَيْنِ ، وأحضرَ طريفٌ آلةَ التَّصوير ، وقال لأنسامَ : « سألْتقِطُ عدداً من الصُّورِ النادرةِ على شاطئِ البحرِ للطيورِ المخْتلفةِ » .

فقالت أنسام : « إنى أعتقد أن أسامة سينجح فى ترويضها ويجعلها أليفة حتى تهرع إليه إذا ناداها » . وضحك الجميع لهذه المبالغة . وقالت إلهام : « إن كيكى ستدهش الطيور البحرية بكلامها وثرثرتها .... أهذا جرس الهاتف » ؟ فقال طريف : « نعم . لقد اتصلت والدتنا بالدكتور جلال ولكنها لم تجده . فطلبت أن يتصل بنا عندما يعود ، وأعتقد أنه يطلبنا الآن ! » . وأسرع الأطفال إلى الردهة حيث كانت والدتهم تتكلم فى الهاتف قائلة : « دكتور جلال ؟ ! من .... ؟ ! زوجته ؟ ! أهلاً .... ! ماذا تقولين .. ؟ إنى آسفة جداً من أجله ، وأرجو ألا يكون الأمر خطيراً ... نعم ! نعم ! لا بد أن يؤجل الأمر بعض الوقت ، وربما أجل إلى السنة القادمة ... إنى أرجو أن تكون حالته مطمئنة ، وأرجو أن تتصلى بى دائماً .... مع السلامة وفى أمان الله » .

ووضعت الأم السماعة فى مكانها ، والتفتت إلى أولادها فى صمت ، ثم قالت : « لقد أصيب الدكتور جلال فى حادث سيارة هذا الصباح ، ونقل إلى المستشفى .. ومن البديهى أن الرحلة ستؤجل » .

وأحس الأطفال بخيبة أمل عظيمة .

٢٠٢ ... ١٩٥٢

٣ — أمرٌ غامضٌ

شعَرَ الجميعُ بالأسف من أجْلِ الدكتورِ جلال وقال أُسامةُ : « لقد تكلمْنا كثيراً عن الرحلة ، وأعددْنا كلَّ شيءٍ لها . أما الآنَ فإن والدتَنا ستبحَثُ عن مُرَبية جديدة ! » فقالتْ والدتُه : « لا ، لَنْ أحْضِرَ مُرَبيةً جديدةً ، ولكنى سأُرْجِئُ أعمالى وأصْحَبُكم أنا حتى لا تضيعَ عليكم العطلةُ الصيفيةُ » .

فقالتْ أنْسامُ : « لا ! لا ! إن هذا سيضُرُّ بأعمالكِ يا أُمَّاه ، ويجبُ أن نبحَثَ عن حلٍّ آخرَ ، فماذا نستطيعُ أن نفعلَ ؟ »

ولكنَّ أحداً لم يستطع الاهتداء إلى حلٍّ جديد .

وقَضَى الجميع بقيةَ اليَوم وقد فارقهم سرورهُم ومرَحُهم ، وازْداد ضجرُهُم واكْتئابُهم ، وكانوا يَقضُون أكثرَ أوقاتِهم فى صَمْت عميق لم يَألفُوه ، ولا يقطعُ هذا الصمتَ إلا أنَّةٌ مكتُومةٌ ، أو آهَةٌ حائرةٌ ، أو نظرةٌ شاردةٌ ... وضاقَ الأولادُ بعضهم ببعض ، وأظلمَتِ الدُّنيا فى عيُونِهم ، ونَشِبتْ فَجْأَةً معركةٌ بين أسامةَ وإلهامَ ، وأخذَا يتضاربَان ويتصايحَان . فأَخذَتْ أنسامُ تبْكى . وصاح طريفٌ : « كُفى يا أسامةُ ! إنك ستؤذِى إلهامَ ! » ولكنَّ إلهامَ كانتْ تستطيعُ أن تُدافعَ عن نفسها . وسمعَ الجميعُ فرْقعةً عاليةً عندما صفعَت إلهامُ أسامةَ على وَجهه ، فأمسكَ بذراعَيْها غاضباً ، فرَكَلَتْه . ولكنَّ أسامةَ رفعَها إلى أعلَى ثم ألْقى بها على الأرضِ . ووقعَ فوْقها ، وأخذا يَتدَحرجَان على الأرضِ ، وابتعدَتْ أنسامُ عن طريقهما وهى لا تزالُ تبكِى. . . . وطارَتْ كيكى بعيداً وهى تضحَكُ بصوت عال وقد ظنتْ أنهما يلعبَان معاً .

وفى غمارِ هَذِهِ الضجَّة لم يسمعْ أحدٌ منهم صوْتَ جرسِ الهاتفِ وهو يدُقّ ،

وذهبَتْ والدتهم لتُجيبَ نداء الهاتف وهى تعجَبُ لتلك الضجّة الصادرة من حجرة الأولاد . فلما انتهت المكالمةُ ذهبَتْ إلى حُجرتهم وقد أشرَق وجهها بالابتسام ، ولكنها عَبَسَتْ عندما رأتْ إلهام وأسامة يتعاركان على الأرض وصاحَتْ بهما : « أسامة ! إلهام ! ألا تَخجَلان من تصرفكما بعد أن كَبِرْتما هكذا ! إنكما تستحقان ألاَّ أخبرَكما الحديثَ الذى جرَى فى الهاتف الآنَ » .

وجلس أسامة وهو يتحسَّسُ وَجْنَتَه المُلْتَهِبَة ، وابتعدَتْ عنه إلهامُ وهى تُمْسِكُ بذراعها ، وأخذَتْ أنسامُ تُكَفْكِفُ دُمُوعَها[1] ، ولما رأيا أمَّهما غاضبةً اعتذرَا لها ، وتصافحَا ، ونَسيَا ما كانَ بينهما ، وقدَّمَ أسامةُ لإلهامَ قطعةً من الحلوَى ، فأخذتها إلهامُ ، وقدَّمتْ نِصفَها لِأمِّها ، ثم قَدَّمتِ النصفَ الثانىَ لأختها الصغيرة أنسامَ .

وبعد فترة قصيرة قالت الوالدةُ : « مَنْ تظنُّون ذلك الذى طلبَنَا فى الهاتف الآن ؟ ! » فقالت أنسامُ : « لعلهاَ زوجة الدكتور جلال لتخبرَنا أنه بخيرٍ وأنَّ الرِّحلةَ لن تُؤَجَّلَ » فقالت والدتها : « لا ! إنه سميرٌ ! ! » فصاحَ الجميعُ : « سمير ! هل عاد ثانيةً ؟ ! هل يأْتى لزيارتنا ؟ ! » فقالت الوالدةُ : « لقد قال إنه رُبما يَأْتى اليومَ بعدَ أن يُقبلَ الليلُ حتى لا يَلقاه عندَنا شخص آخرُ ، وكان يتحدَّثُ بحذرٍ شديدٍ حتى إنه لم يَذْكرِ اسْمَه ، ولكنى عرفْتُه من نبرات صوْته . ويخيَّلُ إلىَّ أنّ هناك أمراً غامضاً يكتنفُ المسألةَ ! . »

نَسِىَ الجميعُ المعركَةَ ، وتركزَ اهتمامهم حولَ رُؤْيَةِ سميرٍ في هذه الليلة .

وقال أسامة يسأل والدتَه : « هل أخبرْتِ سَمِيرًا أننا كنا مرضَى بالحصبةِ ؟ وأننا لا نجدُ مَنْ يُسافرُ معَنا إلى شاطئِ البحرِ ؟ ! » فأجابَتْ : « لا ! لم يكنْ

---

(١) تكفكف دموعها : تمسحها مرة بعد مرة ؛

لدَىَّ وقتٌ لِكَى أخبِرَه ؛ فإِنه لم يتكلمْ أكثرَ من نصف دقيقة ، وأسرَعَ إلى إنهاء الحديث بطريقةٍ غير طبَيعية . وأيًّا كان الأمرُ فإنه سيأْتى فى هذه الليلة ؛ ولكنى لا أدْرِى السببَ الذى جعلَه لا يريدُ أن يأْتِىَ إذا كان عندَنا ضيوفٌ آخرون ؟ ! » فقال أسامةُ : « أعتقدُ أنه لا يريدُ أن يراه أحدٌ وربما كان مكَلَّفاً إحْدَى المهَام السرِّيَّة مرةً أخرى . هل نستطيعُ انتظارَهُ حتى يَأتىَ ؟ ! » فقالت الأمُّ : « تستطيعون الانتظارَ حتى الساعة التاسعة والنصف » .

فقال طريفٌ : « إننى لن أنامَ قبل أن يَأْتِىَ ، ولكنْ ، لماذا كان يتكلمُ بتلكَ الطريقة الغريبة ؟ ! » وظلَّ الأولادُ ينتظرون سميراً حتى الساعة التاسعة والنصف ، ولكنه لم يَأت ، فقالت الوالدة : « يجِبُ أن تذهبوا جميعاً إلى الفراش ، فإن التعبَ والإرهاقَ يَبْدُوَان عليكم جميعاً ، وأنتم ما زِلْتم ضعافاً من تأثيرِ الحصبة ، فلا دَاعىَ للسهرِ الطويلِ ، وإذا حضر سمير فسأُخبرُكم فى الصباح بما يدُورُ بينى وبينه من حديث » .

وذهبت الفتاتان إلى حُجرةِ نومهما ، وكانت تطلُّ على الناصية الخَلْفية للمنزل . وذهب أسامة وطريفٌ إلى حجرتِهما التى كانت تطلُّ على الناصية الأمامية للمنزل ، وذهبَ طريفٌ إلى النافذة ونظرَ منها ولكنه لم يَجِدْ أثراً لسيارة أو أحد قادماً . فقال لأسامةَ : « سأَنتظرُ بجانبِ النافذةِ أراقبُ مَجىءَ سمير ، فإذا جاء أيقَظْتكَ » فدَلَفَ[1] أسامة إلى فرَاشِهِ وهو يقولُ : « حسناً ! سنتناوَبُ المراقبة فأَيقظْنى بعدَ ساعة » .

---

(١) دلف إلى فراشه : مشى إليه مشياً هيناً خفيفا بخطيٍ متقاربة .

وفى الحجرةِ الخلفيةِ كانت إلهامُ وأنسامُ فى فراشهما ، وكانتا تأمُلان ألاَّ تناما حتى يصلَ سميرٌ ، ولكنَّ النَّومَ سرْعانَ ما غلَبهما ، وأُغْمضَ جُفُونهما .

ودقَّت الساعةُ العاشرةُ والنصفُ فأيْقظَ طريفٌ أسامةَ وقال له : « إنه لم يَأْتِ بعدُ ، وقد جاء دوْرُك لِتقومَ بالمراقبةِ . . . . إننى أعْجبُ . . . لماذا تأخَّرَ هكذا ؟ ! » وجلس أسامةُ بجانبِ النافذةِ . ولكنَّ الظلامَ كان يلفُّ المكانَ فى حلُوكة وسكون شديد ويبْدو أنَّ الوالدةَ لم تكن قد نامتْ بعدُ . ثم نظرَ فرأى ضوْءا ينسابُ من إحْدَى نوافذِ الطابقِ الأرضى ويُضىء جانباً من الحديقةِ . وفجْأةَ لمحَ أسامةُ وجهاً شاحباً يُطِلُّ من بينِ بعضِ الشُّجَيْراتِ عند بابِ الحديقةِ ، فأسرَعَ يختفى عِنْدما سَقَطَ الضَّوْءُ عليه ، وقال فى نفسه : « منْ هذا الرجلُ ؟ ! منْ هـــذا الذى يختبِئُ فى حديقتنا ؟ ! ولماذا يختَفى فى هذا المكانِ ؟ ! لاَ يُمكنُ أن يكونَ سميراً ، وإلاَّ لدَخلَ إلى المنزلِ منْ فوْرِه ! ! ! إذًا ، لا بدَّ أن أحداً يكْمُنُ لسميرٍ ويترصَّدُه ! ! ! ! »

وأسرع أسامةُ إلى طريفٍ وأيْقظَه وأخبرَه بما رأى ، وعاد الاثنان إلى النافذةِ ، ولكنَّ الضَّوْءَ كان قد انطَفأ وسادَ الظلامُ مرَّةً أخرى فلم يستطيعا رُؤْيةَ شىْءٍ . وقال طريفٌ : « يَجبُ أن نفعلَ شيئاً ! يجبُ أن نُحذِّر سميراً حتَّى لا يُباغتَه ذلك الرجلُ المختبِئُ عندَ بابِ الحديقة . ولا ريْبَ أن سميرًا يعرفُ أن هناك خطرًا يتهدَّدُه ، وإلاَّ لماَ كانَ حذرًا هكذا فى كلامِه فى الهاتفِ ، ولَمَّا أصرَّ على ألا يأْتِىَ إلا فى وقت مُتأخِّرٍ يأمَنُ فيه ألا يكونَ عندنا أحد . إنَّ والدتنا لم تذهبْ إلى فراشِها بعدُ ! وقد جاوزتِ الساعةُ الحاديةَ عشرةَ

وبعدَ لحظاتٍ رأى الصّبيّانِ الأنوارَ تنطفِئُ . فقال أسامةُ : « هذه هى والدتُنا تستعِدُّ ، وسيسودُ الظّلامُ المنزلَ ، وربّما ينصرِفُ ذلكَ الرجلُ » . فقال طريفٌ : « علينا أن نتحقّقَ مِن أنه انصرفَ ، وهل تظُنُّ أنّ سميرًا سيأتِى بعدَ أنِ انقضَى من الليلِ نصفُه أو كاد ، فقد صار الوقتُ متأخرًا جدًّا ! » فقال أسامةُ : « ما دامَ قد قال إنه سيأتى فلا بُدَّ أنه سيأتى . . . هس . . . هذه والدتُنا قادمة . . . »

وأسرعَ الصبيّانِ إلى فِراشِهما وتظاهرا بالنَّوْم . وفتحَتِ الوالدةُ بابَ الحُجرةِ وأضاءتِ النُّور . فلما وجدَتهما نائمينِ أطفأتِ النُّورَ وأغلقتِ البابَ . وكذلك فعلَتْ فى حُجرةِ الفتاتَينِ ، ثم ذهبَتْ إلى فراشها بعدَ ذلك .

عاد أسامةُ إلى النافذة وقد أرهَفَ أذنَيْه لعلّه يسمعُ شيئًا ، وبعدَ لحظةٍ سَمِعَ سُعالاً خفيفًا ، فعَلِمَ أنّ الرجلَ ما زال هناك ، وقال لطريف . « إنه ما زال هنا ! لا بُدّ أنه قد عَلِمَ بطريقة ما أنّ سميرًا سيأتِى هنا الليلة » . فقال طريفٌ : « أو ربّما كان الرجلُ يعرفُ أنّ سميرًا صديقُنا ، ومن المحتمل أن يزُورَنا . ولا يَبعُدُ أنهُ يأتى كلَّ ليلة لمراقبة المنزلِ ونحنُ لا ندرِى ، ولا بُدَّ أن سميرًا له أعداء كثيرون ، فهو دائمًا فى أعقابِ المجرمين واللُّصوص والأشرارِ ، يترصدُهم ويقتفِى آثارَهم ، وينصِبُ لهمُ الشِّباكَ ليقبضَ عليهم ويُقدِّمَهم إلى المحاكمة ليُريحَ الدولةَ والناس من شرهِم » .

فقال أسامةُ : « سأتسلّلُ من البابِ الخلفى وأخرُجُ إلى الحديقة ، وسأنفذُ مِن خِلالِ السُّور إلى حديقة جيرانِنا ثُمَّ أخرُجُ من بابِهم الخلفى حتى

لا يرانى ذلك الرجلُ المتربِّصُ عند بابِ حديقتنا ، وأرقبُ الطريقَ بعدَ ذلك حتى إذا رأيْتُ سميراً قادماً أسْرَعْتُ أُخبرهُ . وأنا أعرفُ الاتّجاهَ الذى يأتى فيهِ دائماً » . فقال طريفٌ : « إنها فكرةٌ مُدْهشة ، وسآتى معكَ » فقال أسامةُ : « لا ! فيجبُ أن يظلَّ أحدُنا بجوار النافذة يرْصُدُ الرجلَ لكَىْ نعرفَ ما إذا كان انصرَفَ أو لم ينصرِفْ . وسأذهَبُ الآنَ ، وإذا وجدْتُ سميرًا فسأحذِّرهُ لكى يَعُودَ أدْرَاجه »(١) . فقال طريفٌ : « وأبْلِغْه تحياتِنا . واطلبْ إليه أن يتَّصِلَ بنا بالهاتف ، وسنقابله فى أى مكان يُريدُه »

وخرج أسامةُ من الحجرة فى هدوءٍ فلمَحَ ضوْءًا فى غرفة والدته ، فتَسَلَّلَ فى حذرٍ شديد ومَشَى على أطراف أصابعه حتى لا تُحسَّ به ؛ فقد كان يخْشَى أن يُفزِعَها إذا علِمَتْ بأمرِ الرجلِ المختَفِى فى الحديقة وخرج من الباب الخلفى للمنزل وأغلَقَه خلفَهُ فى سكون ، وسارَ فى الحديقة حذرًا من غيرِ الاستعانة ببطاريَّته حتى لا يَلفِتَ إليه الأنظار . ولما وصلَ إلى فُرْجَة فى السُّورِ تَفصِلُ بين حديقتهم وحديقة جيرانهم — نَفَذَ منها ، وأخذَ يَسيرُ على الأعشابِ مُتجَنِّبًا الممرَّ الرئيسىَّ حتى لا يُسْمَعَ صوتُ قدميْه . وخُيِّلَ لأسامةَ أنه سمعَ صوتًا فتوقفَ فى مكانه يتَسمَّعُ . . . يا ترى ! !

أهناك رجُلٌ يختَبِئُ فى هذه الحديقةِ ؟ !

أم لصوص وليْسُوا رجالا يترَصدون سميرًا ؟ !

أيسرِعُ فى هدوءٍ إلى الهاتفِ ويَستَدْعِى الشُّرْطةَ ؟ ! . . .

---

(١) لكى يعود أدراجه : لكى يرجع فى الطريق الذى جاء منه .

وأرهفَ أسامةُ أذنيْه وشعرَ كأنَّ هناك شخصاً بالقُرْبِ منه يتسمَّعُ أيضاً ، ولم يكنْ ذلك شعوراً جميلاً فى وسَطِ الظلام . وخطا أسامةُ خطوة إلى الأمام ، وفى سُرْعةِ البرْقِ انقضَّ عليه شخْصٌ ، وأمسكَ بذِراعيْه ، وجعلهما خلفَ ظهْرِه ، وألقاهُ على وَجْهه ؛ فانكبَّ وجهُه فى الطِّينِ الرِّخْوِ حتى كادَ يختنقُ ، ولم يجِدِ الفُرصةَ ليَصيحَ طالباً النَّجْدَةَ .

٤ — زيارةُ سمير

لم يَشعرْ أحدٌ بما حدثَ بين أسامةَ ومُهاجِمِه ؛ فقد كان الرجلُ قويًّا جدًّا ، وكان سريعَ الحركةِ ؛ ولم يُحدِثْ أدْنى صوتٍ فى هُجُومِه على أسامةَ . ولم يفعلْ أسامةُ شيئاً أكثر من أنه أخذَ يُقاوِمُه مُقاومةً عنيفةً ، إذْ أنَّهُ كادَ يختنق ووجهُه مُنغرِزٌ فى الطِّينِ الرِّخْوِ . وأحسَّ أسامةُ بالرجلِ يربطُ يدَيْه خلفَ ظهرِه ، ثم أدارَه الرجلُ على ظهرِه وأسرعَ يُكمِّمُ فمَه .

تعجَّبَ أسامةُ من أمرِ هذا الرجلِ . . . يا تُرَى ! هل حَسِبَه سميراً ؟! ولكنْ لاشكَّ أن الرجلَ يعلمُ أن سميراً أكبرُ منه جسماً ، وأقوى منه بِنْيَةً ؟ ! وحاولَ أسامةُ أن يتخلَّص من الكِمامةِ والقيودِ ولكنّها كانت مُحاولةً فاشلةً ؛ لأن الرَّجلَ كان قويًّا يقِظاً . وحمله الرجلُ إلى كُوخٍ صغيرٍ فى أحدِ أركانِ الحديقة ، ثم قال فى صوت آمرٍ خافت : « والآنَ ، أخبرْنى : كَمْ شخصاً منكم موجودًا هنا ؟ هيَّا أخبرنى وإلاّ ندمتَ على سُكُوتك . . . . إذا كان هناك زملاء لك فأومِئْ برأسِك مرَّتين » وأخرج الرجلُ بطاريَّةً وأضاءها فى سرعة خاطفة ، ثم أطفأها وشهقَ وقال : « أسامةُ ! ماذا تفعل

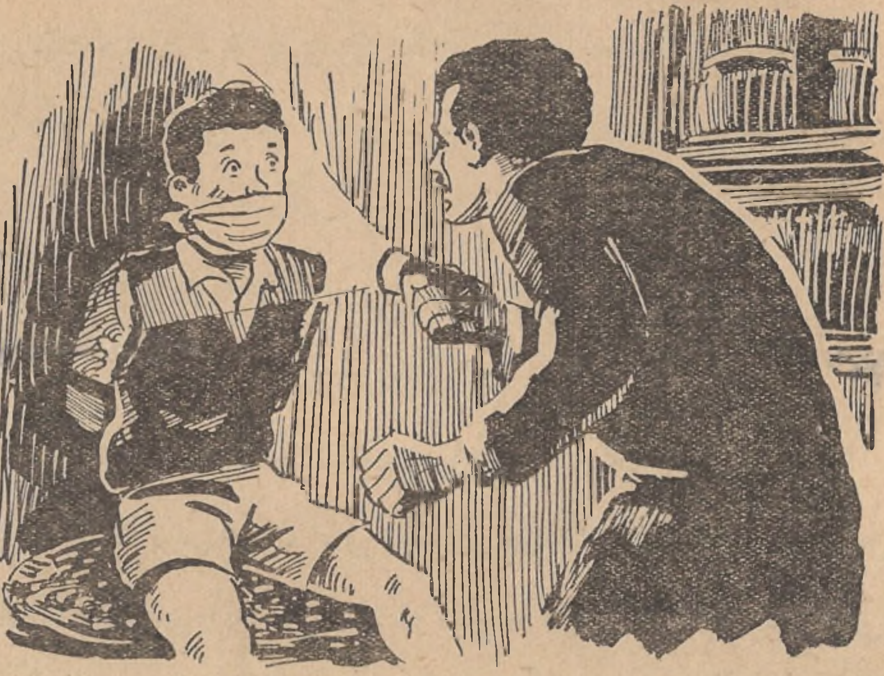

أسامة : ماذا تفعل هنا أيها الجحش الصغير

هنا أيُّها الجحشُ الصغيرُ ؟ ! وما الذى جعلك تتسلَّلُ هكذا فى الظلام ؟ ! »

وافرحةِ أُسامةَ استطاع أن يُميِّزَ صوتَ سمير ، فأخذَ يُحاولُ إزالةَ الكِمامةَ من على فمِه ، فهمَسَ سميرٌ : « لا تتكلَّمْ » ثم نزَعَ الكِمامةَ وقال : « لا تُحدِثْ صوتاً ؛ فقد يكونُ هناك آخرون بالقُربِ من هنا ، وإذا كنتَ تريدُ أن تقولَ شيئاً فاهْمِسْ فى أُذُنى » . فهمَسَ أُسامةُ قائلاً : « هناك رجلٌ يكمُنُ بين الشُّجَيْراتِ عند بابِ حديقتنا الأمامىِّ . وقد تسلَّلْتُ خارجاً لكى أحذِّرك » . وكان سميرٌ قد حلَّ وَثاقَ أسامةَ ، وأخذَ يَدلُكُ له يدَيْه فى خِفَّة ؛ فقد كان سميرٌ ماهراً فى تقييدِ خُصومِه .

والتَّشديدِ على أيديهم وحمد أسامة الله أن سميرًا لم يستعمل معه قبضة يدَيْه ، وهمسَ أسامةُ : « إن بابَ المنزلِ الخلفى مفتوح ، وليس هناك مَنْ يُراقبهُ ، فهيَّا بنا إلى البيتِ » . وسار الاثنان فى هدوء إلى فُرْجَةِ السُّور التى يَعْرِفُها أسامةُ جيدًا ، ونَفذَا منها فى هدوء وحَذَرٍ . وقاد أسامةُ سميرًا إلى البابِ الخلفىِّ وهما مُتَسَتِّرَانِ بالظلام ، ودخلا إلى المنزل . فقال سميرٌ : « لا تضئ النورَ حتى لا يعلمَ أحدٌ أنَّ سُكَّانَ المنزل مُستيقظون » . وأحكمَ سميرٌ إغلاقَ البابِ ، وصعدَ الاثنان فى السُّلّمِ إلى الطابقِ العُلوىِّ ، فسمعَ طريفٌ وَقْعَ أقدامِهما عندما اقتربا ؛ فاندفعَ خارجًا من الحجرةِ . ولِحُسْنِ الحظِّ لم يُضِئِ النورَ . وقال أسامةُ هامسًا : « لقد أحضرت سميرًا معى ! ! » فرحَّبَ طريفٌ بسميرٍ ترحيبًا فيه حرارةٌ وفَرْحةٌ . . . ودخل الجميعُ إلى حُجْرةِ أسامةَ وطريف . وقال أسامةُ : « يجبُ أن أغسلَ وجهى وفَمِى ؛ فقد تلوَّثا بالطين ... » فقال سميرٌ مُعتذرًا : « إننى آسفٌ فلم أكُنْ أعْلَمُ أنك أسامةُ ، وقد ظننْتُك بعضَ مَنْ يترصَّدوننى فصممْت على أن أظفرَ به قبلَ أنْ يَظفرَ بى » . فقال أسامة وهو يتجه إلى الحمَّامِ : « وقد أدَّيْتَ مُهِمَّتَك على خير وجه » .

وبينما أسامةُ يَتَحَسَّسُ مكانَ فُرشاة أسنانه فى الظلام ـ اصطدمَتْ يدُهُ بزجاجة صغيرةٍ فسقطَتْ على الأرضِ وتحطَّمَتْ مُحْدِثةً دويًا شديدًا فى سكونِ الليل . فقال سمير لطريف: « اذهبْ إلى أخْتَيْك بسرعة ، وحذِّرْهما

أن تَضيئَا النورَ ، واذهبْ كذلك إلى والدِتك إذا كان الصوتُ قد أيقظَها وحذِّرْها كذلك » .

وأسرع طريفٌ إلى حجرةِ أُختَيْهِ فى الوقتِ المناسب ليمنَعَ أَنسامَ من إضاءةِ النور . أما والدتُه فلم تستيقِظْ لأنَّ حجرتَها كانت بعيدةً عن الصوتِ . ودُهِشَتْ أنسامُ مِنْ تصرُّف طَريفٍ وسألَتْه : « ماذا حدث ؟ ! هل وقع مكروهٌ لك أو لِأسامةَ ؟ ! » فقال طريف : « لا ! أيقظِى إلهامَ فقد جاء سميرٌ ، ولـكن يجبُ ألاَّ نُضِىءَ النورَ » . وسمع طريفٌ حفيفاً خافتاً . ومرَّ شئٌ بجانبِ رأسِه فقال : « كيـكى ! أينَ كنتِ ؟ ! وما الذى جعلَكِ تنامِينَ هذه الليلةَ فى تلك الحجرةِ ، هيَّا معى لِتَلْقَىْ سميرًا ! ! » وأيقظَتْ أنسامُ إلهامَ وأخبرَتْها بالأمر ، فأسرعَتْ معها إلى حجرةِ أسامةَ حيثُ كانت كيـكى تَقِف على كتفِ سميرٍ تُرحِّبُ به فى سرورٍ على طريقتِها . وعنـدما أحسَّ سميرٌ بالفتاتَيْنِ تدخلانِ الحجرةَ رحَّبَ بهما قائلاً : « مَنْ منكما إلهامُ ؟ ومَن منكما أنسامُ . ؟ . . . . آه ! هـذه هى أنسامُ ! . » أنسامُ ضاحكةً : « نعم ! إننى أنسامُ ، وأينَ كنتَ طُولَ هذه المدةِ ؟ ولماذا لم تَرُدَّ على خطاباتنا ؟! » . فقال سميرٌ : « لقد كنتُ مُكلَّفاً أن أتعقَّبَ بعضَ المجرمين الخطِرينَ ، وحدث أنهم علموا بما أدبِّرُ لهم فبَدَءوا يُطارِدُوننى ، فاضطُرِرْتُ إلى الاختفاء مُدَّةً لِكَىْ أفْلِتَ منهم » . فقالت أنسامُ مُنزَعِجةً : « هل كانوا يُحاوِلون خَطْفَك ؟ » فقال سميرٌ : « لايعلمُ أحــدٌ ماذا كانوا يَنوُونَ أن يفعلوا لو أنهم ظَفِرُوا بى . ولـكنْ هأنَذا هنا » . فقال أسامةُ : « إذًا ، هذا هو السببُ فى وجود

ذلك الرجلِ الذى يُرَاقِبُ منزلَنا ! ولـكن ، لماذا جِئْتَ لزيارتِنا فى هذا الوقت !.
هل تريدُ منا أن نفعلَ شيئاً ؟! فأجاب سميرٌ : « إننى أعدُّ العُدَّةَ لِـكَىْ أختفىَ لِمُدَّةٍ طويلة ، وقد جئتُ لـكَىْ أترُكَ بعضَ الأشياءِ مع خالتى إذْ رُبَّما لا أعودُ ثانيةً !! ! فإنَّ هـذه العصابةَ تعتَبِرُنى خطرًا عليها ، ولن يَهْدَأ بالهُم حتى يَقْضُوا عَلَىَّ ... » فسألته أنسامُ : « وأَيْنَ تختفى منهم ؟! أَلاَ تخبرُنا بالمكانِ الذى ستكونُ فيه ؟ » فأجابها سميرٌ : « رُبَّما ذهبتُ إلى بعضِ الأَماكِنِ الخَلَوِيَّةِ لأَقْضِىَ بعضَ الوقتِ فى دَعَةٍ وسكون حتى يَكُفَّ هؤلاءِ المجرمون عَنْ مطاردَتِى ، أو حتى يقعُوا فى قبضةِ رجالِ الشُّرطةِ ، ولـكن لا تَظُنِّى أننى أريدُ أختفِىَ ، فأنا لا أخشاهم ، ولـكنَّ رُؤَسائِى هم الذين أمرُونى بذلك ؛ لأَنهم لا يريدون أن يُجَازِفُوا بفَقْدِى ؛ ولذلك يجبُ علىَّ أن أختَفِىَ مُدَّةً ، ولن أتصِلَ بكم ولا بأحد من أهلى » .

وبعدَ هذا الكلامِ ساد الحجرةَ سكونٌ عميقٌ ، فلم يكُنْ سماعُ هـذه الأنباءِ فى ذلك الظلامِ مِمَّا يَسُرُّ أحدًا ثم قال سميرٌ : « لا تنزَعِجُوا !! فسأعود إليكم ثانيةً ؛ وقد يكونُ ذلك فى السنةِ القادمةِ أو التى تَلِيها . أما الآنَ فإنى سأبْتَعِدُ عن المدينةِ وأذهبُ إلى الريفِ . وقد أذهبُ إلى مكان مهجور على شاطئِ البحرِ لأراقِبَ الطيورَ وأصطادَ السمكَ » .

وفى هذه اللحظةِ خطرَتْ لطريف فِكْرَةٌ فقال : « لقد خطرَتْ لى فِكرةٌ عظيمةٌ ! » فقال سميرٌ : « لا ترفعْ صوتَك هكذا ، وخذْ كيكى من على كَتِفِى قبل أن تأكُلَ أذنِى كلَّها » . فقال طريفٌ : « لقد خطرَتْ لى

فكرةٌ مُعيَّنةٌ .... فقد تحطَّمَتْ بعضُ آمالِنا اليومَ ... ولكنى سأُقصُّ عليك القِصَّةَ من البدايةِ » . فقال سميرٌ : « حسنًا ! هاتِ ما عندَك ، أَخبِرْنى بما حدَثَ » فقال طريفٌ : « لعلّك لا تعلَمُ أَنّا كنّا مرْضَى بالحصبةِ ، وقد قرَّرَ الطبيبُ أَن نذهبَ إلى بعضِ الأماكنِ الخلَويَّةِ لِتغْييرِ الجوِّ ، وكان مُقرَّرًا أن نذهبَ مع بَعثةِ الدكتورِ جلال إلى بعضِ الأماكنِ الساحليَّة » . فقال سميرٌ : « نعم ! نعم ! لقد سمعتُ بأمرِ هذه البَعثةِ » . فقال طريفٌ : « لقد أُصيبَ الدكتورُ جلالٌ فى حادثِ سيارةٍ ولذلك لن نستطيع أن نذهبَ . فلِماذا لا نذهبُ معك كأنك أحدُ هُواةِ الطيورِ ؟! إنها فِكرةٌ مُدْهِشةٌ ، وبعدَ أن تنتَهِىَ الإجازةُ نستطيعُ أن نعودَ ونترُكَكَ فى أمان ... » وسادَ السكُونُ فى انتظارِ الإجابةِ ، حتى كيكى بدَتْ كأنّها تُنصِتُ فى اهتمامٍ . وأخيرًا قال سميرٌ : « أعتقدُ أن هذا غيرُ مُمكنٍ ؛ فإنى أخشَى أن يَفطُنَ المجرمون إلى ما يحدُثُ فيُصيبَكم مكروهٌ معى » . ولكنَّ الأولادَ لم يَقتنِعُوا بكلامِ سميرٍ ، بل زادُوا تحمُّسا لفِكرةِ طريفٍ ، وأخذَ كل منهم يُحاوِلُ تأييدَ الفِكرةِ . فقالت إلهامُ : « إنها فكرَةٌ جميلةٌ ، وسنستطيعُ بذلك أن نقضِىَ عُطْلةً مَرِحةً على شاطئِ البحرِ بعدَ إلغاءِ بَعثةِ الدكتورِ جلال » . وقال طريفٌ : « إنك تُجيدُ التنكُّرَ . ويُمْكنك أن تُسافرَ معنا فى أمان إلى حيثُ نستَمْتِعُ بالبحرِ والطيورِ البحريَّةِ » . وقال أُسامةُ : « لن يستطيعَ أحدٌ أن يعرفَ أينَ ذهبْنا إذا ما قصدْنَا مكانًا غيرَ مُزْدحِمٍ على شاطِئِ البحرِ . وبذلك

نقضِى العُطلةَ فى مَرَحٍ وسرورٍ » . وقالت أنسامُ : « إن هؤلاء المجرمين لن يُقصِّروا فى البحثِ عنك فى مثلِ ذلك المكانِ الذى سنذهبُ إليه » .

وقال سميرٌ : « اخفِضُوا أصواتكم . إننى قبل أن أبُتَّ برأيٍ فى هذه المسألةِ يجبُ أن أحادِثَ خالتى فى الأمرِ ، فإنها فكرةٌ جريئةٌ ... أن أسافرَ معكم جميعاً حتى كيكى الثرثارة » .

٢٨ فبراير ١٩٥٧

٥ — خططٌ مثيرةٌ

دعا الأطفالُ سميرًا لقضاءِ الليلِ فى الغُرفةِ المُخصَّصةِ للضُّيوفِ حتى يستطيعَ أن يتحدَّثَ مع والدتِهم فى الصباحِ ، وقالت إلهامُ : « فى الصباحِ سنُحضِرُ لك الإفطارَ فى الحجرةِ حتى لا تراك الخادمةُ فى الطَّابقِ الأرضىِّ . ولكن الأمورَ لم تكُنْ على ما يُرامُ فى صباحِ اليومِ التَّالى ؛ فقد ذهبَتْ إلهامُ إلى غُرفةِ والدتِها فوجدَتْها متوعِّكةً . وقالت الوالدةُ : « لقد أحسسْتُ أنى غيرُ عاديَّةٍ ، وأن صحَّتى ليست طبيعيَّةً ، وكنتُ أتمنَّى لو أنَّ المُربِّيةَ قبلتِ العملَ عندنا ، إذا لأمكنَها أن تأخُذَكم الآنَ إلى مكان بعيد عن هذا المنزل ... خشيَةَ أن أكونَ مُصابةً بحُمَّى مُعْدِيَة . وبُعْدُكم عن المنزلِ فيه استجمامٌ لكم ، واسترْواحٌ لأنفسِكم ، وبُعْدٌ عن العدْوَى ... . إذا كانتْ هناك عدْوَى . فماذا نفعلُ الآنَ ؟ » فقالت إلهامُ : « سأرتِّبُ حجرتَك ترتيباً عاجلاً ، لأنَّ عندَنا زائرًا قد يُمْكِنُهُ أن يجِدَ حلاً لهذا الموقف ... إنه سميرٌ ... » فقالت الوالدةُ : « سمير !! متى جاء ؟ ! لقد انتظرْته أمس إلى الساعةِ الحاديةَ عشرةَ ولكنه لم يأتِ ! يا ترَى ! هل يستطيعُ أنْ يأخُذَكم فى رحلةٍ بعضَ الوقتِ

ويتركَ خضرةَ الخادمةَ تعتني بي ؟! » فقالت إلهامُ : « لاشكَّ أنه سيفعلُ ذلك وسأذهبُ لآتيَ به » وأخبرتْ إلهامُ الآخرين بمرضِ والدتِها ، فشعرَ الجميعُ بالأسى والأسفِ وقالت إلهامُ : « إن والدتي ستستقبلُ سميرًا . . . ! » فذهب سميرٌ إلى حجرتِها وهو يقولُ للأولادِ : « سندبّرُ الأمرَ عاجلا » فهبطَ الأولادُ إلى الطابقِ الأولِ لكيْ يتناولُوا إفطارَهم ، وقالت إلهامُ : « إن هذه الرحلةَ لو تمّتْ فستفيدُنا كثيرًا . لعلَّ سميرًا ينزلُ على عجَلٍ لكيْ نعرفَ ماذا تمَّ ! ! » .

ولكنَّ سميرًا لم ينزلْ ، وسمعوا أحدَ الأبوابِ في الطابقِ العلويِّ يُفتح ، ثم وصل إليهم صوتُ صفيرٍ خافتٍ ؛ فصاحتْ إلهامُ تخاطبُ سميرًا : « انزلْ إلينا لنتناولَ الإفطارَ ، فقد خرجتْ خضرةُ الخادمةُ لشراءِ بعضِ الحاجاتِ » . فنزل سميرٌ وقال لها : « إن والدتَك تريدُ فنجانةً من الشاي الساخنِ » فأسرعتْ بإعدادِ الشاي ، واتّصلَ سميرٌ بالطبيبِ بالهاتفِ . ثم استمرّ يقولُ لإلهامَ : « اتّصلي بإحدى صديقاتِ والدتك وادعيها لقضاءِ أسبوعٍ أو أسبوعيْن هنا ، وقد قالت والدتك إن صديقتَها سيسُرُّها ذلك » . فقال الأطفالُ : « وماذا قرّرْتما بشأننا ؟! » فقال سميرٌ : « لقد طلبتْ والدتكم مني أن آخذَكم بعيدًا لمدّةِ أسبوعيْن . فأخبرتُها أنني سأصحبكم إلى مكانٍ على شاطئِ البحرِ ، ولكنْ لم أشأ أنْ أزعجَها بالأسبابِ التي تدعُوني للاختفاءِ ؛ كما أنها لم تسألني أسئلةً كثيرةً لأنّ حالتَها الصحّيةَ لا تعينُها على الاسترسالِ في حديثٍ طويلٍ » . فصاح الجميعُ : « إذًا ، فسنذهبُ إلى شاطئِ البحرِ » .

وأشرقتْ وجوهُ الأولادِ بالابتسامِ ، وانتهزتْ كيكي الفرصةَ فالتهمتْ

كَمِّيَّةً كبيرةً من المُرَبَّى ، فلما وجدتْ أنَّ أحداً لم يلتفتْ إليها التقطتْ قطعةً من السكرِ . وقال أُسامة : « أعتقدُ أن والدتى ستحتاجُ إلى بقاء أحد هنا ، فإذا كان الأمرُ كذلك فسأبقى أنا » فقال سميرٌ : « أعتقدُ أن الأفضلَ ألاَّ يبقى أحدٌ منكم هنا ، فوالدتكم فى حاجة إلى الراحةِ التَّامةِ والهُدوءِ الشامِلِ » . فقال طريفٌ : « جِئْتَ فى الوقتِ المُناسبِ لتحُلَّ لنا هذا الموقفَ » . وقال أُسامة فجأةً : « ها قد عادتْ خضْرةُ ، أسرِعْ يا سميرُ إلى الطابقِ العُلوىِّ » وقالت إلهامُ : « سأحْضِرُ لك بقيَّةَ إفطارِك فوْراً .. كيكى ! كيكى ! اتركى هـــذا المُرَبَّى !! طريفُ ! امنعْ كيكى عن التهامِ هذا المربَّى » وأسرعَ سميرٌ بالصُّعودِ إلى الطابقِ العُلْوىِّ . فلما دخلَتْ خضرةُ إلى المطبخِ ذهبَتْ إلهامُ إليها وأخبرَتْها بمرضِ والدتِها ، فقالت خَضْرَةَ : « آسفةٌ لمرضِ السيدةِ . . . » وسمِعتا صوتاً يُنادى : « خضرة ! خضرة » فوثبَتْ خَضْرَةُ قائلةً : « إن سيدتى تُناديني . . . فكيْفَ تقولينَ إنَّها مريضةٌ ؟! إننى قادمةٌ يا سيِّدتى » . ولكنها كانتْ كيكى تقومُ بإحْدَى فكاهاتِها مُقلِّدَةً نداءَ السيدةِ للخادمةِ خضرةَ . وأخذتْ تضحكُ عندما رأتْ خَضْرَةَ تدخلُ غرفةَ المائدة مُسرعةً ، ثم صاحتْ بها : « امسحْ قدمَيْك ! ! ضعِ البرَّادَ على النارِ ! ! أينَ منديلُك ؟ » . فخرجَتْ خَضْرَةُ من الغُرفةِ مَغيظةً وقالت : « إننى أتقبلُ الأوامرَ من الجميعِ ، ولكنَّنى لا أقبلُها من هذه البَبْغاء العابثةِ » . فقالت إلهامُ : « لا تبتئسى ! فسنقومُ برحلة وسنأخُذُها معنا » وجاء الطبيبُ كما جاءتْ صديقةُ الوالدةِ وأُعِدَّ كلُّ شىءٍ : علاجُ الأمِّ وراحتُها .. ورحلةُ الأولادِ ، والعنايةُ بهم . وقال سميرٌ للأولادِ : « أعِدُّوا حقائبَكم وانتظرونى

غدًا فى الساعةِ الثامنةِ فى محطةِ السكةِ الحديديةِ ، وسأكونُ متنكرًا فى هيئةِ العلماءِ ، وستكون لى لحيةٌ ، وسأعرِّفكم بنفسى عندما أصلُ » . وبدتْ بدايةُ الرحلةِ مثيرةً وكأنهم مُقبلون على مغامرة لذيذة كثيرةِ المفاجآتِ ، ولكن ماذا يمكنُ أن يحدثَ فى مكان منعزلٍ هادئٍ على شاطئِ البحرِ ....!؟

لا شيء يمكنُ أن يحْدُثَ فى مثلِ ذلك المكانِ الهادئِ ! ! وغادرَ سميرٌ المنزلَ فى أثناءِ الليلِ فى هدوءٍ ، ولم يعلمْ أحدٌ أنه قضى يومًا كاملاً فى هذا المنزلِ .
وأسرعَ الأطفالُ يعدُّون حقائبهم واكتفَوْا بأخذِ الملابسِ الصيفيةِ الخفيفةِ ، ولم ينسوْا ملابسَ الاستحمامِ ونظاراتهم المعظَّمةَ وآلةَ التصويرِ . وقالت إلهامُ لطريف : « لقد أخذتْ كيكى قلمكَ ! » فصاح طريفٌ : « كيكى ! هاتى القلمَ وإلا فإنى لن آخذكِ إلى البحرِ » فصاحتْ كيكى : « البحر ! البحر ! البحر ! » وقالت أنسامُ : « أنضعُ كيكى فى قفصٍ عندما نركبُ القطارَ أم نأخذُها من غيرِ قفصٍ ؟ إنها لن تكفَّ عن أمرِ الركابِ بمسْحِ أقدامِهِمْ ووضعِ البرّادِ على النارِ ، وتقليد نداءاتِ بائعى السميطِ والبيضِ » . فقال طريف : « سآخذُها معى وستكونُ هادئةً ... كيكى ، كُفِّى عن هذه الأصواتِ المزعجة ! » ولكن كيكى استمرّتْ تطقطقُ بمنقارِها ، فتناولَ أسامةُ إحْدَى الوسائدِ وألقاها عليها ، فطارَتْ كيكى غاضبةً ، ووقفتْ فوقَ إحْدَى الستائرِ صامتةً .
وأخذَ الأولادُ يتناقشُون فيما عساهم فاعلون حتى غلبهم النَّومُ فناموا . . .

وفى صباح اليومِ التالِى استيقظَ الجميعُ مُبكِّرين وارتدَوْا ملابسَهم . وأسرعُوا إلى والدِيهم يطمئِنُّون عليها ، ثم ودَّعُوها بعد أن وَعدُوها بمتابعةِ

إرسال خطابات إليها . وجاءتْ سيارةُ أُجرة إلى بابِ المنزِل ، فركبها الأولادُ ومعهم كيـكى . وقفزَ سائقُ السيارةِ مَذْعُورًا عندما صاحَتْ كيـكى فَجْأة : « أَقفِلِ البابَ ! أَقفِلِ البابَ ! » وضحك الأولادُ لذلك . وانطلقتِ السيارةُ بهم مُتّجِهَةً إلى محطةِ السكةِ الحديديةِ ، والجميعُ يحلُمُون بإجازةٍ هادئة على شاطئِ البحرِ ، بعيدةٍ عن المغامرات ...

٢٨ شباط ١٩٥٧

الفصل الثانى

١ — بدء الرحلة

وصل الإِخوةُ الأربعةُ إلى محطةِ السكةِ الحديديةِ ، وَحَمَلَ كلٌّ منهم حقيبَتَه وذَهَبُوا إلى المكانِ الذى عيَّنَه لهم سميرٌ لِكَىْ ينتظِرُوه فيه .

وبينما الإخوةُ فى انتظارِ سميرٍ قال أسامةُ : « ألا يجوزُ أنَّ العصابةَ التى كان سميرٌ يُطارِدُها قد علِمتْ بما نحنُ مُقدِمون عليه ، فترسلَ أحدَ أفرادِها . ويَدَّعِى أنه سميرٌ وأنه حضر مُتَنَكِّرًا ، ثم يصحبُنا إلى حيثُ لا يَسْمَعُ إنسانٌ عنا شيئًا بعدَ ذلك ؟! » فذُعِرَتْ أنسامُ وقالت : « أتعتقِدُ أن هذا مُمْكِنٌ ! ولو أنه حَدَثَ فإنى أعتقِدُ كذلك أننا نستطِيعُ التَّعَرُّفَ على سميرٍ عندما يأْتِى مُتَنَكِّرًا » .

وفى هذه اللحظةِ اقتربَ من الإخوةِ رجلٌ بَدِينٌ ، وابتسَمَ لهم ، وحَمْلَقَتْ فيه أنسامُ وهى خائفةٌ مذْعُورَةٌ . لقد كان الرجلُ سمينًا ضَخْمًا ، ومن المُستحِيلِ أن يكونَ هو سميرًا لأنَّ سميرًا مَهْمَا تنكَّرَ لا يستطيعُ أن يَبدُو بَدِينًا هكذا . وأَمسكَتْ أنسامُ بيدِ أُسامةَ خائفةً ، وقد شَحُبَ وَجْهُها عندما اقْتَرَبَ منها الرجلُ مُبْتَسِمًا ، وقال لها : « أيَّتُها الصغيرةُ ! لقد سقط مِنْديلُكِ ، وسيَضِيعُ إذا لم تلتقِطِيه وتنتَبِهِى إليه ! » ونظرتْ أنسامُ حَوْلَها ، فرأَتْ مِنديلَها قد سقطَ على الأرضِ ، فالتقطَتْه وغَمْغَمَتْ[1] ببعضِ كلماتٍ

---

(١) غمغمت : نطقت بكلمات غير واضحة .

الشكر . فابتسم الرجلُ مرّةً ثانيةً وقال : « لماذا أنتِ خائفةً ؟! إننى لن آ كُلَكِ »
ونظرَتْ إليه أنسام فى صَمْتٍ وهى تقولُ فى نفسِها : « إنه قد يفعلُ ذلك
حقًّا !! » وقالت كيكى فى صوتٍ هادئٍ مُؤدَّبٍ : « افتحِ الكتابَ صفحة ٦ !! »
فقال الرجل : « يَا لها من بَبغاء ذكية ! » ومدَّ يدَه لِيرَبِّتَ رأسَها ، ولكنَّ
كيكى عضَّتْه فى إصبَعه عضةً أوجَعَتْه ، ثم أطلَقَت صيحةً عاليةً تُشْبِهُ صفير
القطارِ ، فاختفَت الابتسامة التى على شفَتَيِ الرجلِ وقال : « إنها طائرٌ خَطِيرٌ » .
ثم سار مُبتعِدًا .

وظلَّ الأولادُ ينتظِرُونَ سميرًا وهم يتَلفَّتُون حَوْلهم فى جميعِ الاتّجاهاتِ ،
ولكنَّهُم لم يستطيعُوا أن يرَوْا أحدًا يُشبِهه ثم ظهرَ رجلٌ عريضُ المَنْكِبَيْنِ ،
يَرْتدى مِعْطفَ سفرٍ وقبَّعَةً لَيِّنَةً (كاسكيت) ويضعُ على عينيْهِ نظَّارةً
سمِيكةً ، وكانَتْ له لِحْيَةٌ سوداء . ولكنَّه عندما تكلَّمَ سَمِع الأولادُ صوْتَ
سميرٍ يقولُ : « كيف حالُكم ؟ لقد حضَرْتُ فى الميعاد ، والآنَ نبدأُ رحلتَنا »
وابتسمَتْ أنسامُ فقد عرفَتْ صوْتَ سميرٍ بالرَّغم من اللِّحيةِ السوداءِ والنَّظَّارةِ
السميكةِ . وكانت على وشْكِ أن تنْدَفِعَ إليه مُرَحِّبَةً ، ولكنَّ طريفًا أدْركَ
أنها على وَشْكِ أن تفعَلَ ذلك فأزاحَها جانبًا ، ومدَّ يَدَه يصافحُ سميرًا فى أدَبٍ
واحتِرَام شديدَيْنِ ، وحَذَا الباقون حَذْوَه حتى ليَظُنُّ مَنْ يَراهم أنهم أربعةُ أطفال
مع مُعَلِّمِهم ، أوْ أحَد المشرِفينَ عليهم . وقال سميرٌ : « هيَّا بنا » ونادى
سميرٌ أحَدَ الحمَّالِين ليأخُذَ الحقائبَ إلَى القطار . ولم تَمضِ لَحَظاتٌ حتى
كان الجميع جالسين فى القطارِ . وقال طرِيفٌ : « كيف نَصِلُ إلى المكانِ

الذى نَقْصِدُ إليه ؟ » فقال سمير : « عندما نترُكُ هذا القطارَ سنُكَمِّلُ رِحلتَنا فى زَوْرقٍ بُخارىٍّ » وابتهجَ الأطفالُ لذلك . وقال سمير : « إن معى خريطةَ للشاطئ تُبَيِّنُ جميعُ الجزُرِ فى هذه المنطقةِ ، وأَعتقِدُ أَنَّ هناك بعضَ الجزُرِ التى لم يذهَبْ إليها إنسانٌ من قبلُ . وسنختارُ إحدى هـــذه الجزُرِ لِنَجْعَلَها مقرًّا لنا ، ثم نستطيعُ بعد ذلك أن نقومَ برحلاتٍ إلى الجزُرِ الأخرى لِمُراقبةِ الطيورِ ، وصَيْدِ السمكِ ، والتقاطِ صُوَرٍ للمناظرِ الطبيعيَّةِ الفريدة . » وسُرَّ الإخوةُ لذلك ، وَتَخَيَّلُوا أنفسَهم يرُوحون ويغْدُون بَيْنَ الجزُر فى القاربِ البُخارىِّ وهم يَنْعَمُون بصَيْدِ السمك تارةً والسباحة تارةً أُخْرَى . أو وَهُمْ يجلسون على الصخورِ وقد تدلَّتْ أقدامُهم فى الماء . وقال أسامةُ : « أَوَدُّ لو أَستطيعُ أن أَستأْنِسَ بعضَ الطيورِ البحريةِ وآخُذَها معى ونَحْنُ عائدون » فقالت أنسامُ : « إننى أَعتقِدُ أنك تستطيعُ أن تفعلَ ذلك وتجعلها كالقِطَط الأليفةِ » فصاحت كيكى على الفوْرِ لِتَشْتَرِكَ فى الحديثِ : « قطَّة قطيفة لطيفة !! قطة قطيفة لطيفة » ولكن الأطفالَ لم ينتَبِهُوا لها ؛ فقد كانوا مُسْتَغْرِقِينَ فى تأمُّلاتِهم وأحْلامِهم اللذيذةِ . وقال سمير : « سأبقَى فى هذه الجزُرِ بَعْضَ الوقتِ بعدَ عَوْدَتِكم ، وسأشْعُرُ بالوَحدةِ . فلعلَّكَ تترُكُ لى تِلْكَ الطيورَ التى ستُؤلِّفُها . » وقالت أنسامُ : « إننى أَكْرَهُ أن نترُكَكَ هنا وَحْدَكَ . فهل تمكُثُ وقتاً طويلاً هنا ؟ » فقال سمير : « أعتقِدُ أننى سأَبْقَى وقتاً طويلاً يَكْفى لِكَىْ ينسانِى أعدائى أو يظنُّوا أننى مُتُّ » . فقالتْ أنسامُ « لماذَا لا تعملُ فى مِهْنَةٍ أُخرى لا خَطَرَ فيها ؟! » فقال سمير

مُبْتَسِماً : « هل كنتِ تُرِيدين مِنِّي أن أكُونَ بُستانيًا ، أو سائقَ ترام . أو غيرَ ذلك من المِهَنِ الآمنةِ . . . . . . لا ! ! لا ! ! إن هذه الحياةَ تُلاَئِمُنِي كُلَّ المُلاءَمَةِ . إننى أعملُ فى جانبِ القانونِ والحقِّ والنظام ، والعملُ فى جانبِ القانونِ والحقِّ والنظام عملٌ وطنىٌّ جليلٌ يستحِقُّ أن نخاطِرَ مِن أجْلِه . إن قُوَى الشرِّ شديدةُ المِرَاس (١) . ولكنِّى قوىُّ الشَّكِيمةِ (٢) أيضًا ، ومن الخيرِ أن يُجرِّبَ الإنسانُ قُوَّته ضدَّ الأشرارِ » فقالت أنسامُ : « إنى واثقةٌ أنك ستَفُوزُ دائماً . ولكنْ ، ألا تشعُرُ بالضيقِ لاضطِرارِك إلى الاختِفاءِ الآن ؟ ! » . . فأجاب سميرٌ : « إننى غيرُ راضٍ عن هذا الاختِفاء . ولكنَّ الأوامِرَ هى الأوامِرُ . . . وعلى كلِّ حال فهى فُرْصَة لنا جميعاً لِكَىْ نقضِىَ عُطلة جميلة . . . » .

وأخذ الجميعُ ينظرون إلى الخريطةِ التى نَشَرَها ، ثم مدَّ طريفٌ إصبَعَه وأشارَ إلى إحْدَى الجُزُرِ وقال : « إن شكلَ هـذه الجزيرةِ يُعْجِبُنِى » فقال سميرٌ : « سنُحاوِلُ الذَّهابَ إليها حتى لو ضَلَلْنَا الطريقَ ، ولكن . . . ماذا يَهُمُّ إذا ضَلَلْنا الطريقَ فى وسَطِ تلك الجُزُر الجميلةِ فى هـذا الوقتِ من الصَّيْفِ ؟ ! » . وكانت كيكى فى ذلك الوقتِ قد اتَّخذَتْ لها مكاناً على حافَّةِ أحَدِ الأرْفُفِ فى المقصورةِ التى جلسُوا فيها ، واستعدَّتْ للنوم عِنْدَما وجدتْ أصدقاءها مُنْصَرِفِينَ عنها . وأحدَثَ بابُ عربةِ القطارِ دَوِيًّا وهو يُقْفَلُ فصاحتْ كيكى : « أقفل البابَ ! ضعِ البرَّادَ على النارِ ! ! استدْعِ الطبيبَ » .

---

(١) شديدة المراس : قوية هائلة .

(٢) قوى الشكيمة . ذو قوة ينتصر بها من ظالمه .

ثم دوَّى صفيرُ القطار ، واهتزَّتِ المقصورةُ كلُّها عندما بدأَ القطارُ يسيرُ ، فكادتْ كيكى تقعُ من أعلى الرَّفِّ ، فأخذتْ تصيح غاضبةً . . . .
« أقفلِ البابَ !!! امسحْ منديلَك ... أين قدمَاك !! ضعِ النارَ على البرَّاد !... »
فضجَّ الجميع بالضحك لهذه الثورة المُضحِكةِ التى أضاعتْ فصاحةَ كيكى ..

٢٨ فبراير ١٩٥٧

٢ — فى عُرضِ البحرِ

قبل أن يصِلَ القطارُ إلى غايتِه حانَ وقتُ الطعام ، فصحِبَ سميرٌ الأولادَ إلى عربةِ الطعام المُلْحَقةِ بالقطارِ . وكانتْ أنسامُ تخشَى السيَّرْ على الفواصِلِ التى تربِطُ كلَّ عربتَيْنِ ، فكانت تُمْسِكُ بيَدِ سمير عندئذ . وقالت أنسامُ : « عندما أعبُرُ هذه المنطقةَ التى بَيْنَ العربتَيْنِ يُخيَّلُ إلىَّ أن القطارَ سينْقَسِمُ إلى جُزْءيْنِ فى هذا المكان . وسخِر إخوتُها من هذه الفِكرة ، ولكنَّ سميرًا أدركَ شعورَها فلم يسخرْ منها . وفى عربةِ الطعام جلسَ الأولادُ حولَ إحْدَى الموائِد ، وكيكى لم تُحْسِنِ السُّلوكَ فى هذه المرة ، وظلَّتْ تصيحُ وتصْرُخُ لأنَّهم لم يسمحُوا لها أن تخطفَ ما تريدُ من الأكل ، وعندما قدَّم لها طريفٌ بعضَ الحبوبِ رفضتْ أن تتناولَها غاضبةً ، وأخذ باقى الركابِ ينظرون إليها مسرورين لهذا المنظرِ المُسَلِّى ، وأخذَ بعضُهم يضحَكُ لما تفعلُه كيكى ، فأخذتْ تُغالِى فيما تفعَلُه حتى اضطرَّ سميرٌ أن يَضرِبَها وهو يَصيحُ : « كفى ! كفى ! ! ولكن كيكى وثبتْ نحوَه وجذَبتْ بعضَ شُعيرَاتِ ذَقْنِه المُستَعارة بمنقارِها بشدَّة ، وأسرعتْ تختَبِئُ تحتَ المائدة ، .
وأخذتْ تفحصُ هذه الشُّعيرَات وهى تعجَبُ : ما الذى أصابَ سميرًا فجعَلَ

وجذبت كيكى بعض شعيرات ذقن سمير المستعارة بمنقارها بشدة

له هذا الشعرَ الكثيفَ في وجهِهِ ؟! وقال سميرٌ : « اتركوها وشأنها فسيُسْعِدُها أن تُمزِّقَ تلك الشُّعَيْرَاتِ التي انتزعَتْها ، ولكن ، هل يَبْدُو شكلي غريبًا الآن ؟» فقال طريفٌ : « لا ! فلم تؤثِّرْ تلك الشُّعَيْرَاتُ التي انْتَزَعْتَها كيكي في شكلِ لحيَتِكَ . إن هذه الرحلاتِ عادةً تثيرُ كيكي فتظلُّ تصيحُ وتصْرُخُ آمرةً الرُّكابَ بأن يمسحوا أقدامَهم ويقفِلُوا الأبوابَ ، ثم تَصِيح مُقَلِّدَةً صوْتَ القطارِ حتى ليكادُ أن يُصيبَنَا بالصَّمَم » . فقالت أنسامُ : « ولكنها لطيفةٌ ونحنُ جميعاً نُحِبُّها » .

وأخيرًا وصلَ القطارُ إلى غايتِه فغادرَ أبطالُنا القطارَ ، وتوجَّهوا إلى الشاطئِ وهم فرِحُون ، فلما رَأَوُا المياهَ الزرقاءَ قالت إلهامُ : « إنني أشعرُ أن العُطلَةَ قد بدأتِ الآنَ عِندَما رأيْتُ البحرَ » ؛ وكان ذلك شُعُورَ الجميعِ حتى كيكي ، وكان الهواءُ يهُبُّ على وُجُوهِهِم ، فتطايرَ شعرُ إلهامَ وأنسامَ إلى الخلفِ ، وحرَصَتْ كيكي على أن تقِفَ ومنقارُها في مُواجهةِ الهواءِ ، فقد كانت تكرَهُ أن يعبثَ الهواءُ بريشِها فيطيرَ في الاتجاهِ المُضادِّ . وذهب سميرٌ إلى الميناءِ ليَرَى ما إذا كان زوْرَقُه مُعدًّا ، فلما وصلَ وجَدَ القاربَ قد تمَّ إعدادُه . وكان الرجلُ الذي يَحْرُسُ القاربَ يعرِفُ سميرًا حقَّ المعرفةِ وكان على عِلْمٍ تامٍّ بهيئةِ سميرٍ التي يَتنكَّرُ فيها ، وحيَّاهُ بصوْتٍ مُرْتَفِعٍ قائلاً : « أرجو أن تُكَلَّلَ جهودُ بَعثَتِكم العلمية بالنجاح ، وقد أعْدَدْتُ لكم كلَّ شيء » فابتسمَ سميرٌ وقال : « وهل زوَّدْتَ القاربَ بالمُؤنِ الكافية ؟ » فقال الرجلُ : « نعم يا سيِّدي ، وسأقودُكم إلى خارجِ الميناءِ ثم أعودَ

فى زَوْرَقِى الصغير » . ثم أَضاف بصوتٍ خفيضٍ : لقد جهَّزْتُ القاربَ بحيث يستطيع أَن يُقاوِمَ حصارًا حربيًّا » . فابتسم سميرٌ لذلك التعبيرِ ، وصعِدَ الجميعُ إلى القاربِ .

وكان القاربُ السريعُ قويًا جميلاً ، وله مقصورةٌ صغيرةٌ فى المقدمةِ . ولاحظَ الأولادُ أن بالقاربِ كميات كبيرةً من الأطعمةِ قد وُضعَتْ بنظامٍ وترتيب . وقادَ الرجلُ الزَّوْرَقَ إلى خارجِ الميناء ، ثم حيَّاهم وانتقلَ إلى زَوْرَقه الصغيرِ الذى كان قد رَبطَه خلفَ الزَّوْرَقِ البُخارِىِّ السريعِ ، ثم قال لسميرٍ : إن جهازَ اللاسلكىُّ فى أحسنِ حال ، وسننتظِرُ رسائلك بانتظامٍ لكى نطمئنَّ على أنك بخيرٍ » . وأخذ الرجلُ يُعمِلُ مِجدافَيْه فى الماءِ إلى المرفإِ . وابتعدَ القاربُ السريعُ ، وقال سميرٌ : « لقد أصبحْنا فى عُرضِ البحرِ ، وأستطيعُ أن أنزِعَ هذه اللحيةَ المُستعارةَ ، وهذه النَّظَّارةَ أيضاً . إنك تستطيعُ قيادةَ هذا الزَّوْرَقِ يا أُوسامةُ ، فتولَّ قيادَته ريثما أستعيدُ هيْئتى الطبيعيةَ ، وحافِظْ على اتجاهِ القاربِ » .

وأمسكَ أُسامةُ فخورًا بعجَلةِ القيادةِ . وانطلقَ الزَّورقُ يشقُّ المياه الزرقاء ، واندفعَ الهواءُ يخففُ من وَطْأةِ حرارةِ الشمسِ . وجلسَ طريفٌ بالقُربِ من أُسامَةَ وهو يقولُ : « إن هذا بديعٌ ... !! بديعٌ جدًّا » . وقالت إلهامُ : « إننى أشعر بسعادة غامرة . إن هذا الشعورَ يملأُ الإنسانَ دائمًا عند بَدْءِ الإجازاتِ حينَما ينظرُ فيجِدُ الأيَّامَ ما زالَتْ كثيرةً أمامه ، لكىْ يلهُوَ ويلعبَ . فقال أسامة : « إذا لم تحتاطِى لنفسك يا إلهامُ فستجدِينَ نفسَك من الشعراء !! »

فقالت إلهامُ: « إذا كان الشعراء يُحِسُّون كما أُحِسُّ أنا الآنَ — فلا مانعَ عندى من أن أصبحَ شاعرةً » . وقالت كيكى : « أينَ منديلُك ؟ ! أينَ منديلُك » ولأوّلِ وهْلَة ظنّ الجميعُ أن كيكى تريدُ أن تشترِكَ فى الحديث عن الشعراء ، ولكنهم ما لبِثوا أن أدركوا أنها كانت تُوجِّهُ كلامَها للفئرانِ الأليفةِ الثلاثةِ التى خرجَتْ من مَكْمَنِها ، ووقفتْ على كَتِفِ أسامةَ ، وأخذتْ تتشمّمُ الهواءَ بأنوفِها الحمراءِ الدقيقةِ . وقالتْ إلهامُ : « هل أحضَرْتَ هذه الفئرانَ الكريهةَ معك .. ؟! إننى أرجو أن تفترِسَها بعضُ الطيورِ البحريةِ المتوحِّشةِ » .

وبعْدَ قليلٍ ظهرَ سميرٌ خارجاً من المقصورةِ وقد استعادَ شكلَه الطبيعىَّ بعد أن أزالَ تنكُّرَه ، فقابلَه الأولادُ بعاصفة من عباراتِ التَّرحيبِ مُعبِّرين عن سُرُورِهِم بعودَتِه إلى هَيْئَتِه الأولى . وتولّى سميرٌ عجلَةَ القيادةِ من أسامةَ وهو يقولُ : « إذا استمرَّ الجوُّ هكذا فسنُصبِحُ سُودًا بعدَ يومٍ أو يومَيْن » . وبالرَّغمِ من أنَّ الهواءَ كان يهبُّ بشدَّة فإنَّ حرارةَ الشمس كانتْ شديدةً . وقال سميرٌ « إن هذه عُطْلةٌ ولبستْ مُغامرةً ، وقد كان لنا مُغامراتٌ قبلَ ذلك ، وأنا فى هذه المرَّةِ أُريدُ أن أتمتَّعَ بعُطلة هادئة » . فقالت أنسامُ : « نعم ! كَفانا مُغامرات . إننى لا أُريدُ أن نُمضِىَ وَقْتَنا فى الاختباءِ والزَّحْفِ من خِلالِ السراديبِ والكهوفِ المظْلِمةِ ، بل أُريدُ أن أتمتَّعَ بالهواء والشمسِ والبحرِ فى جوٍّ هادئ » وقالت إلهامُ : « إننى لا أرى جُزُرًا حوْلَنا » . فقال سميرٌ : « ستَرَيْنَ جُزرًا كثيرةً غدًا وتستطيعين أن تنتقى منها ما تشائينَ » .

وظلَّ الزَّوْرَقُ منطلِقاً فى سبيله حتى مالتِ الشمسُ للمغيبِ ، وكانتْ إلهام

وأنسامُ قد أعدَّتا الشاىَ ، فأخذَ الجميعُ يَشرَبونه مُتمتِّعين بمَنظَرِ الشمسِ المُتوهِّجَةِ وهى تَختَفِى رُوَيْداً رُوَيْداً وراءَ الأُفُقِ . وقالت أنسامُ : « لقد أغرقتِ الشمسُ نَفْسها فى البحر . لقد رَاقبْتُها حتى اختَفَتْ آخرُ قطعة منها !! » وقال طريفٌ : « أين نقضِى ليْلتَنا ؟! » فقال سميرٌ : « إن مَعَنا خيمتَيْنِ ، وسنَنْتَقِى إحْدَى الجُزُرِ و نَنْصُبُ عليها الخيمتَيْنِ ، و نقضِى الليلَ . فما رَأْيُكم ؟! » فأَبْدَى الجميعُ موافقَتَهم على الفِكرةِ وأخذُوا يستعِدُّون لاختِيارِ جزيرة مُناسبة . ولكنْ فى ذلك الوقتِ لم تَكُنْ هناك جزيرةٌ واحدةٌ فى الأُفُقِ ، وأسْلَمَ سميرٌ عجلَةَ القيادَةِ لأسامَةَ ، وأَخَذَ هو يفحَصُ الخريطةَ . ثم قال : « سنصلُ إلى جزيرتَيْنِ صغيرتَيْنِ بعدَ بعضِ الوقتِ ونستطيعُ قضاءَ الليلِ على إحْدَاهُما ، وفى الصباح ننطلقِ للبحثِ عن جُزُرٍ أخرى » .

وتولَّى سميرٌ عجلَةَ القيادَةِ مرَّةً أخرى وهو يقولُ لأسامَةَ : « انظرْ ، إنَّ أحَدَ فِئْرانِك يتشمَّمُ ذَيْلَ كيكى ، فإن لم تتدارَكِ الأمرَ وتُبعِدْه فستَحْدُثُ جريمةُ قَتْلٍ ! » ولكنَّ كيكى لم تكُنْ لِتُهاجِمَ فِئرانَ أسامةَ ، وإنما اكتفَتْ بأنْ طقطقَتْ مِنقارَها بصوت عال ، فارْتَعَبَ الفأرُ وانطلَقَ نحْوَ سيِّدِهِ مسرعاً يحتمى به . وفقدَ البحرُ لونَه الأزرقَ تدريجياً حتى صارَ أخضرَ يَميلُ إلى السوادِ . وَبَدَأَ الهواءُ الباردُ يهبُّ ، وفجأةً بَرَزَ شىءٌ قاتمٌ عندَ الأُفُق فقال سميرٌ : « هذه هى الجزيرةُ التى سنَقْضِى الليلَ عليها ، وسنَصِل إليها قريباً » .

ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى كان الزَّوْرقُ قد وَصَلَ إلى الجزيرةِ ، فنزلَ الجميع وأقاموا الخيمتَين ، وما كادوا ينتهُون من تناوُلِ العشاء حتى استَسْلَمُوا لِنوم عميق .

في ٦ مارس ١٩٥٣

٣ — نهاية الرحلة

فى صباحِ اليومِ التالى استيقظَ الجميعُ مُبكِّرين ، وتناولوا إفطارَهم ، ثم حملوا الخيمتَيْنِ وذهبوا إلى الزَّوْرقِ — وكان اسمُه « نجمةَ الحظِّ » — وكلما صعِدَ أحدُ الأطفالِ إلى الزَّوْرقِ تصيحُ كيكى به : امسحْ قدميْك !! اقفلِ البابَ !! وانطلَقَ الزَّوْرَقُ مرَّةً ثانيةً يشُقُّ المياهَ الزرْقاء . وقالتْ أنسامُ : « إننى أشعرُ بسرورٍ عظيمٍ » وتركَتْ يدَها تتدلَّى فى الماءِ الباردِ . وزادَ سميرٌ من سُرعةِ القاربِ فانطَلَقَ رذاذُ الماءِ فى الهواءِ وأصابَ الجميعَ . فقالت إلهامُ : « هذا جميلٌ ! إنه يُلطِّفُ حرارةَ الجوِّ » . وظلَّ الزَّوْرقُ مُنْطلقاً بأقْصَى سرعتهِ نحوَ أربعِ ساعات أو خمس . وفجْأةً صاح أسامةُ : « هذه مجموعةٌ من الجُزُر !! انظرُوا !! إنها تبْدُو هناكَ عند الأُفقِ » . وازدادَ اقترابُ الزَّوْرقِ من الجُزُر ، واستطاعَ الأولادُ أن يرَوْا بعضَ الطيورِ البَحرية تطيرُ هُناكَ فوقَ تلكَ الجُزُرِ وحوْلها ، فأخذوا يتطلَّعُون إليها فى اهْتِمامٍ ، ويُشيرُونَ بأيْديهم نحوها . ولاحظت كيكى اهتمامَ طريفٍ بهذهِ الطيورِ فلَمْ يُعجبْها ذلك ، وبعدَ لَحظاتٍ مرَّ أحدُ طيورِ النَّوْرسُ الكبيرةِ فوقَ القاربِ ، فاندفعَتْ كيكى نحْوَه وهى تصيحُ ، فارتفعَ النَّوْرسُ فى الهواء مُعتمدًا على جناحَيْه القويَّيْنِ ، ثم أطلَقَ صيْحةً عظيمةً ؛ وفى سُرْعَةٍ قلَّدَتْهُ كيكى ، فنظرَ إليها مشدُوهاً ، وانقضَّ عليها فَجْأَةً ؛ ولكن كيكى أسرعَتْ بالهَربِ والاحْتِماء بطريف ، فطار النَّوْرسُ مُبتعدًا ، وقال طريفٌ لكيكى : « أيَّتها الحَمْقاء ، ماذا تفعلينَ إذا افترسَكِ أحدُ طيورِ النَّوْرَس جزاء حماقتِك ، والتهمكِ التهاماً ؟! » فردَّتْ كيكى فى هدوءٍ : « استَدْعِ الطبيبَ !! استَدْعِ الطبيبَ ! »

فضَحِكَ الجميعُ لِلصُّدْفَةِ التى جعلَتْ كيكى تَبْدُو عاقلةً حكيمةً . وقال أُسامة فجْأةً : « ما هذا ؟! إننى أَسمعُ صوتَ طائرة !! » وأَرهَفُوا جميعاً أَسْماعَهم وهم يُحَاوِلُون رُؤْيةَ الطائرةِ ، فرأَوْا نقطةً صغيرةً تتحرَّكُ فى السماء . فقال سميرٌ : « طائرة !! إنها تطيرُ خارجَ مسارِ الخطوط الجويةِ المعروفةِ ! إن هذا هو آخرُ شَىْءٍ كنتُ أَتوَقَّعُ رُؤْيَتَهُ هنا !! » وأَخذَ سميرٌ نظَّارَةَ طريفٍ المُعَظِّمَةَ ولكنَّ الطائرةَ كانت قد اختفت حتى لا يمكن رؤْيتُها بأىِّ منظارٍ . وتعجَّبَ الأطفالُ من دَهْشَةِ سميرٍ لرُؤْيةِ الطائرةِ . وقال سميرٌ — كأنَّما يُحادِثُ نفسَه — : « يا تُرَى! أَهِىَ طائرةٌ عاديةٌ أَم طائرةٌ مائيَّةٌ ؟! إنه أَمْرٌ غريبٌ ! » فقالت إلهامُ : « ما الغريب فى ذلك ؟ ! إن الطائراتِ تذهَبُ إلى كلِّ مكانٍ الآنَ ! » ولكنَّ سميرًا لم يُعَلِّقْ على كلامِها ، بل أَعادَ النَّظَّارَةَ إلى طريف فى صَمْت ، ثم قال : « يحسُنُ بنا أَن نَنْصُبَ خيامَنَا ، ثم نتناولَ الطعامَ » .

ونزل الجميعُ من الزَّوْرقِ ، وحملُوا الخَيْمَتَيْنِ إلى داخل الجزيرةِ ، وتخيَّرُوا مكاناً لا يبعُدُ عن الشاطِئِ أكثرَ من ثلاثمائةِ مترٍ . ونصبُوا الخيمتَيْنِ ، ثم جلسوا ينظُرُون إلى البحرِ ويتناولون طعامهم . وقالت أنسامُ : « إننى أعتَقِدُ . . . . إننى أعتَقِد . . . . » فقال طريفٌ : « إننا نعرفُ مُقدَّماً ما تريدين أن تَقُولِى ونوافقكِ كلَّ المُوافقةِ » . فصاحَتْ أنسامُ غاضبةً : « إنك لا تعرف ما أُريدُ أن أقولَ » فقالَ أُسامةُ : « بل إننا نعرفُ لأنَّكِ تقولِينَ نفسَ الكلامِ فى كلِّ مرَّةٍ نتناولُ فيها طعامنا فى مكان خَلَوِىٍّ . . . » وقالت إلهام : « إنك ستقُولِينَ إننى أعتقدُ دائماً أن الطعام يكونُ ألذَّ مَذَاقاً فى الأماكن الخلوية

عنه فى المنزل .... أليْسَ كذلك ؟ » فقالت أسامةُ : « نعم ! ! ولكن هل أقول ذلك فى كلِّ مرَّة ...! » وصاحت إلهامُ بطريفٍ : « أبعدْ كيكى من هنا ، إنها لا تكُفُّ عن خطفِ الطعامِ . إنك لا تُعطيها كِفايَتها من الحبُوب » فقال طريفُ : « بل أُعطيها ، ولكنَّها عندما ترَى هذا الأكْلَ ترْفضُ أن تأكلَ الحبُوبَ . وعلى أىِّ حالٍ فإنَّ فئرَانَ أُسامة تستطيعُ أن تأكُلَهُ ، فقد وجدْتُ أحدَها منذُ قليل يلتهِمُ بعضَ الحبِّ فى نهَمٍ شديد » فقال أُسامةُ منْزعِجًا : أرجو ألاَّ تُؤذِيه هذه الحبوبُ » وكانت كيكى قد اختطفتْ قطعةً من الخبز ، وانتحَت بها بعيدًا تأكلُها وقال أُسامةُ : « انظروا ! ! ها قد أقبلَ أحدُ طيورِ النَّوْرسِ ! ! إنه يريدُ قطعْةً من الخبزِ مثل كيكى ! » وكان طائرُ النَّورسِ قد رَأى ما تفْعَلُهُ كيكى ، فأقبلَ يُريدُ نَصِيبَه . ورأتْ كيكى النَّورسَ بطرَفِ عيْنها فابْتَعَدَتْ عنه ، ولكنَّ النَّورسَ انقضَّ على قطعةِ الخبزِ وانتزَعَهاَ ، وطار فى الهواءِ وهو يَطْلِقُ صيْحتَه ابتهاجاً ، وطارت كيكى خلْفَ النَّورس وهى تَصِيحُ بكلِّ الكلماتِ التى تعرفُها ، ولكنَّ النَّورسَ لم يفهمْ شيئاً ، ولم تستطِعْ كيكى اللَّحاقَ بالنَّورس ذى الجناحَيْن القوِيَّيْن ، فعادَتْ إلى طريف مَغيظَةً مُحنقَةً فقال لها : « لا حقَّ لك فى الشَّكْوى ؛ فلوْ لم تخطفى قطعةَ الخبزِ لما اختطفَها منك النورسُ » ونهض سَمير قائلا : « مَنْ منكم يأتِي معى إلى الزَّورق لِيسمعَ الأنباء من الراديو ، وسأُرسِلُ بعضَ الرسائلِ ، ومنها واحدة لوالدتكم كى تطمئنَّ عليكم » .

وكان الأولادُ كلُّهم فى حاجة إلى شيءٍ من النشاط ، فذهبوا معه ، وأخذوا

يراقبونه وهو يُعِدُّ الجهازَ للعملِ . وقالت أَنسامُ : « أَعتقدُ أنك إذا أرسلْتَ برقيَّةً كلَّ يومٍ فلن تكون بنا حاجةٌ لإرسالِ خطابات ، وضجَّ الجميعُ بالضحكِ وقال أُسامةُ : « وكيفَ تصل هذه الخطاباتُ أَيَّتُها البلهاء ؟ ! هل رأيتِ صندوقاً واحداً للبريدِ هنا ؟ ! » فاحْمَرَّ وجْهُ أنسامَ وقالت : « حقّاً ! إننا لا نستطيعُ إرسالَ خطابات من هنا » ! وقال سميرٌ : « إننا لسْنَا فى حاجة للبريدِ ، فيمكنُني إرسالُ البرقياتِ اللاسلكيةِ كلَّ ليلةٍ إلى الرِّياسةِ فيقومون بتبليغها لوالدِيكم لِتتبَّع أخباركم أَوَّلاً بأَوَّل .

وبعد أن انتهى سميرٌ من عملِهِ عاد الجميعُ إلى الجزيرةِ ، وذهبوا إلى خيامهم وكان الظلامُ قد أَسْدَلَ ستُورَه (١) فناموا جميعاً .

وفى صباحِ اليومِ التالى استَيْقَظوا كُلُّهم مُبَكِّرِين ، وقال سميرٌ : « يحسُنُ بنا أن نتركَ هذه الجزيرةَ مُبَكِّرِين لِكَىْ نبحثَ عن جزيرة أُخرَى نتَّخذُها مقرًّا دائماً لنا » . وسرعانَ ماحملوا حاجاتهم إلى الزَّوْرقِ مَرَّةً أُخرى ، وانطلَقَ بهم مُنزَلِقاً على صفحةِ الماءِ سريعاً ، وتركت أَنسامُ يَدَها فى الماءِ الباردِ . وقال أُسامةُ : « إن الجوَّ حارٌّ جدًّا اليومَ ، فهل نستطيعُ أن نسبَحَ قليلاً ؟ ! » وقال سميرٌ : « انتظرْ حتى نصِلَ إلى إحْدَى الجُزُرِ لِأنِّى لا أُريدُ أن أَقِفَ بالزَّورقِ فى وَسَطِ البحرِ ، فإنى أخشَى أن يَتْبَعَ هذا الجوَّ الحارَّ هبوبُ رياحٍ شديدة فى هذه المنطقةِ . وهذه بعضُ الجُزُرِ قد ظهرَتْ فيمكننا اختيار إحْدَاها مقرًّا مُستديماً لنا » وكانتْ أنسامُ مازالَتْ مُدَلِّيَةً يدَها فى الماءِ ، فشعرَتْ بشىء

---

(١) أسدل ستوره : عم السكون .

يلمسُها ، فسحَبَتْها مُسْرِعةً خوفاً من أن تكونَ سمكةً متوحشةً ، ونظرتْ إلى الماء فرأتْ قطعةً من قشرِ بطيخة طافيةً على الماء فصاحتْ تخاطبُ سميراً : « انظرْ !! هذه قطعةٌ من قشرِ بطيخة !! يا تُرى ! مَنِ الذى يأكلُ البطيخَ فى هذه الجزُرِ الموحشةِ المُنعزلةِ ؟! . هل تظنُّ أنَّ بعضَ الناسِ موجودٌ هنا ؟ » ونظر الجميعُ فى دهشة إلى قشرةِ البطيخِ وهى تبتعِدُ عن القارب ، وقال سميرٌ : « كيف وصلتْ قشرةُ البطيخِ هذه إلى هنا ؟ ! لو أنَّ هناك بعضَ الصيَّادين فى هذه الجزُرِ فإنهم لن يُكلِّفوا أنفسهم عناءَ حَمْلِ البطيخِ ، ولن تفعلَ ذلك بعثةٌ من البعثاتِ العلميةِ أيضاً . وهذا المكانُ يبعُدُ عن طريقِ السُّفُنِ والبواخرِ !! فكيف وصلتْ هذه القشرةُ إلى هنا ؟! »

ووصلَ الزَّورقُ إلى مجموعةٍ من الجُزُرِ ، فأخذ سميرٌ يدُورُ به حولها ويندسُّ بينها حتى أعجبَ الأطفالُ بإحداها ، فأجمعُوا رأيهم على أن يقيمُوا عليها . ووجَّهَ سميرٌ القاربَ نحو تلك الجزيرةِ وهو يفحصُ ما حولَها من جزُرٍ ، فلَمْ يجِدْ أحداً سوى بعضِ الطيورِ البحريةِ ؛ ودار الزَّوْرقُ حولَ الجزيرةِ ، وصاحَ أسامة : « هذا مكانٌ يصلحُ مرفأً للزَّورق ، إنَّه خليجٌ ضيِّقٌ بين الصخور . ويبدُو أنَّ مياهَه عميقةٌ ، ويستطيعُ الزَّوْرقُ أن يدخُلَ إليه فى أمان ، ثم نربطه إلى الصخورِ » . وكان الماءُ عميقاً كما قال أسامةُ ؛ ودخلَ سميرٌ بالزَّوْرقِ إلى الخليجِ الضيِّقِ الذى بَدَا كمرفإ طبيعىٍّ صغيرٍ يُلائمُ الزَّوْرقَ ، وكانت هناك حافةٌ صخريةٌ مُمْتدَّةٌ بجانبِ الماءِ كأنما وُجِدَتْ لِتُساعدَهم على النُّزولِ إلى الجزيرة .

١٠ مارس ١٩٥٢

٤ — الطائرة

بعد أن قاد الزورق إلى داخل الخليج الضيق — وثب إلى الشاطئ ، وعاونه أسامة وطريف فى ربط الزورق ربطا محكما حتى لا يصطدم بالصخور. وأخذ الزورق يترجح إلى أعلى وإلى أسفل فى حركات رتيبة هادئة بفعل الموجات الخفيفة التى كانت تدخل إلى المضيق . وقال سمير : « إن المد مرتفع الآن ، والمضيق ممتلئ بالماء . وعندما ينحسر المد سيبدو الزورق منخفضا عن ذلك ... فهل نجد طريقا هناك داخل الجزيرة ؟ » .

وكانت تحيط بالمضيق صخور عالية من كل جهة . وأخذ الجميع ينظرون حولهم ، ولمح ، طريف ممرا فى الصخور ، فجرى نحوه ثم صاح : « هذا طريق بين الصخور ، ونستطيع أن نتسلقه فنجد أنفسنا فى قلب الجزيرة . فقال سمير : « حسنا ؟ ! اذهبوا أنتم الأربعة لاكتشاف الجزيرة وسأبقى فترة من الوقت لكى أقوم ببعض الاحتياطات حتى لا يندفع الزورق نحو الصخور فيتحطم ؛ ويمكنكم أن تنظروا من أعلى الصخور إلى شاطئ الجزيرة ، فإذا وجدتم خليجا هادئا فأخبرونى حتى أقود الزورق إليه بدلا من هذا الخليج الصخرى » .

وأسرع الإخوة الأربعة يتسلقون الطريق الصخرى حتى وصلوا إلى القمة وقد انبهرت أنفاسهم من كثرة ما تعبوا ، فرأوا الماء الأزرق يحيط بالجزيرة ويمتد إلى مدى البصر ، وانتشرت فى أرجائه جزر كثيرة ، وكانت جزيرتهم فى وسطه . وقال أسامة : « إن هذه الجزيرة هى أنسب الجزر لتكون مقرا لنا ، وخاصة أن بها كثيرا من الطيور البحرية » فقال طريف : « نعم!! سنبقى هنا.

فهي أَجْمَلُ الجُزُرِ في هذه المنطقةِ » . فقال أسامة : « يحسُنُ بنا إذاً أن نتخيَّرَ مكاناً ننصبُ فيه خِيامَنا ، ثم نُحْضِرُ حاجاتِنا من الزَّوْرق ، ونُقِيمَ مُعسكرًا . كما يجبُ أن نبحثَ عن خليجٍ هادئٍ يصلُحُ مَرفأً للزَّوْرقِ بدلاً من ذلك الخليجِ الصخرى » وقالت إلهامُ فجأةً « انظروا ! ! هُناكَ خليجٌ صغيرٌ يصلُحُ للزَّوْرقِ ، ونستطيعُ نَحْنُ أن نعومَ فيه أيضاً . فهيَّا لِنُخْبِرَ سميرًا بذلك » .

فقال أسامةُ : « سأذهبُ أنا لأخبرَه ، وأنتِ تبحثين عن مكان مُناسب لِمُعسكرِنا ؛ أما طريفٌ فإني أرى أنه يُريدُ أن يُمتِّعَ نظرَه بالتَّحْديقِ وقتاً ما في الطيورِ البحريةِ ، وسأذهبُ بالقاربِ مع سميرٍ إلى هذا الخليجِ الجديدِ ، ثم نتعاونُ جميعاً على إحضارِ أَمْتِعَتِنا من الزَّوْرقِ .

وأَسْرَعَ أسامة يجرى ليذهبَ إلى سميرٍ ويُخْبِرَه بأمرِ الخليجِ الجديدِ . وجلس طريفٌ مع كيكى يتأمَّلُ الطيورَ المُختلفةَ ، وانطلقَتْ إلهامُ مع أنسامَ للبحثِ عن مكان مناسبٍ للمُعَسْكرِ ؛ فأخذَتا تتجوَّلان حتى وجدَتا مكاناً مناسباً يدُورُ حولَه كثيرٌ من النباتاتِ والأزهارِ البَرِّيَّةِ ، وبعضُ الشُّجَيْرَاتِ القليلةِ . وقالت إلهامُ : « هذا أحسنُ مَكان لإقامةِ المُعَسْكرِ ، وستَحْمِينا هذه الصخورُ القريبةُ من هبوبِ الرياحِ ، كما أننا على مسافة قريبة من شاطئ البحرِ فنستطيعُ أنْ نعومَ وَقْتما نشاء ، ونستطيعُ أن نستقِلَّ الزَّوْرقَ ونقومَ بزيارةِ الجزُرِ المُحيطةِ بنا . فهيَّا بنا نعودُ لِكَيْ ننقلَ أَمْتِعَتنا » . وكان طريفٌ قد أقبلَ نحوَهما فقالَ : « بلْ نبقَي هنا ، فلا شكَّ أنَّ سميرًا وأسامةَ قد أَقْلَعا

بالزَّوْرقِ وسيأتيان إلى هنا بَعْدَ قليل ، وعندئذ نذهبُ إليهما ونُساعدُهما فى إخراجِ متاعِنا من الزَّوْرقِ ، ونَقْلِهِ إلى هذا المكانِ .

ولم يَمض وقتٌ طويلٌ حتى ظهر الزَّورقُ « نَجمة الحظّ » أمام الجهةِ الأخرى من الجزيرةِ ، ودخل إلى الخليجِ الجديدِ ، وقفزَ سميرٌ إلى الشاطئِ وبيدِهِ المِرساةُ ، وثبَّتها فى الرمالِ ، وأشارَ له طريفٌ وأُخْتاه بأيديهم ، فأسْرعَ أُسامةُ إليهم وأبْدَى إعجابه بالمكانِ الذى اختارُوه ، وتعاوَنُوا كلهم على نقْلِ المتاع من الزَّوْرق إلى الجزيرهِ ، حتى كيكى مدَّتْ لهم يَدَ المساعدةِ أو على الأصحِّ منقار المساعدةِ . فقد تطوَّعَتْ بحَمْلِ أحدِ أوتادِ الخَيْمَةِ فى منقارها .. ويَبْدُو أنها فعلَتْ ذلك لِكَيْ تُظْهِرَ مَواهِبَها أمامَ طيور البحرِ التى كانت تنظُرُ إليها فى دَهْشَةٍ وعَجَبٍ . وقال لها طريفٌ : « إنك مغرورهٌ يا كيكى ، وتبالِغين فى إظهارِ مواهِبِك » فتركت كيكى الوتَد فسقطَ فوْقَ رأسِ طريف .

وأمْضَى سميرٌ ورفاقُه بعضَ الوقتِ فى تثْبيت الخيمتَيْن وترتيبِ الأمتعةِ . وتقرَّرَ أن يستقلَّ سميرٌ بإحْدَى الخيمتَيْن ومَعَه أسامةُ وطريفٌ ، وتنامَ إلهامُ وأنسامُ فى الخيمةِ الأخرى . وقال طريفٌ : « ألم يَحِنْ وقتُ تناول الطعامِ بعْدُ ؟ إننى جَوْعانُ جدًّا » . فقال سميرٌ : « إنّ الشَّمسَ على وشْك المُغيبِ وقد بذَلْنَا جُهدًا كبيرًا » ولم تَمضِ لَحَظاتٌ حتى كانوا جميعًا يتناولونَ طعامهم فى سرورٍ واشتهاء . وشمَّتْ فِئرانُ أسامةَ رائحةَ الأكلِ فخرجَتْ فى طلبِ نصيبِها ، وجلس أحدُها فوقَ رُكبَتِه . وجلس الثّانى على كَتِفه ، أما الثالثُ فقد كانَ أكبرَ زملائه حرِصًا ، فأخَذ طعامه واختفى فى أحَدِ جُيُوب أُسامةَ . ثم قالت

أنسامُ لسمير : « هل يُضايقُك الاختفاء فى هذه الجُزُر ؟ » فقال سميرٌ : « لن يُضايقنى ذلك طوالَ الأسبوعَيْن اللَّذيْن ستَبْقَوْنهما معى . أما بعدَ ذلك فإنى أُفضِّلُ حياةَ المخاطراتِ على أن أعيشَ هنا مثلَ هذه الطيورِ ! » فقال أسامة : « إنك ستُعانى الكثيرَ من الوحدةِ ، وأنا على استِعداد لأنْ أتْرُكَ لك فِئرانى الثلاثةَ » . فقال سميرٌ عَجِلاً : « لا ! لا ! شكراً لك إننى لستُ مُغرماً بفصيلةِ الفِئرانِ مثلَك » .

ولما فرغوا من طعامِهم قال طريفٌ : « إننى سأذهبُ لأسْبَحَ قليلاً ، هل تأتى يا أُسامةُ ؟ » فقال أسامةُ : « نعم . إننى ذاهبٌ معك » . وقال سميرٌ : « وأنا أيضاً ذاهبٌ معكما ، فإنى فى حاجة للاسْتِحمامِ واستعادةِ نشاطى » .

أما إلهامُ وأنسامُ فقد فضّلتا البقاء فى الخَيْمةِ لتجهيزِ مُعدّاتِ النومِ ويبْدُو أنّ مرضَ الحصبةِ قد ذهبَ ببعضِ نشاطِهما وقوّتِهما .

وانطلقَ سميرٌ ورفيقاه الآخران فوْقَ المُنحدِرِ الرمليّ المُؤدّى إلى الشاطئِ وألقَوْا بأنفسِهم فى الماء ، وأخذ سميرٌ يطاردُ الصبيّيْن وهما يرُوغان منه مُحْدِثِينَ ضجّةً هائلةً وصخباً عالياً ، وفى هذا الوقتِ نفسِه ، كانت إلهامُ وأنسامُ ترتّبان مكانَ النومِ ... توقفتْ إلهامُ عن العملِ فجأةً وأخذتْ تُنصِتُ بعنايةٍ ! ! وسألتْها أنسامُ هامسةً : « ماذا حدثَ ؟! » وأخذتْ تُنصتُ معها . فسمعتْ صوْتَ طائرة . وخرجتِ الفتاتانِ من الخَيْمةِ وأخذتا تنظرانِ إلى السماءِ لعلّهما تستطيعان رُؤْيةَ الطائرةِ . وقالت أنسامُ : « هذه هى الطائرةُ ! هلْ ترَيْنَها ؟! » وأشارت أنسامُ إلى نُقْطة بعيدة فى السماء ؛ ولكنّ إلهامَ لم تستطعْ

رؤيتها ؛ فقد كانت الطائرة تبتعد وتمعن فى الابتعاد . وقالت أنسام : « لقد سقط شىء من الطائرة وأخذ يهبط رويدًا رويدًا . وقد كان شيئًا أبيض يا ترى ! ما هو ؟ ! أرجو ألا تكون تلك الطائرة فى خطر !! » . فقالت إلهام : « ربما استطاع سمير أن يعرف ، ولا شك أنه رآها هو وأسامة وطريف ، وربما كانت النظارة المعظمة معهم ؛ لأننى لم أستطع أن أجدها » .

وعادت الفتاتان إلى عملهما بعد أن تلاشى أزيز الطائرة . وبعد قليل عاد سمير والصبيان فبادرتهم إلهام : « هل رأيتم الطائرة ؟ ! » . فقال سمير : « لا ! لم نرها ! هل مرت إحدى الطائرات من هنا ؟ ! من الغريب أننا لم نسمع صوت أزيزها ! ! » . فقال طريف : « لقد كنا نحدث ضجة عظيمة ؛ ولذلك لم نسمعها » . وقالت أنسام : « لقد كنت أراقب الطائرة وقد رأيت شيئًا أبيض يسقط منها » . فحدق فيها سمير باهتمام وقال : « هل كانت مظلة ؟ » فقالت أنسام : « قد تكون مظلة ، وقد يكون دخانًا على شكل مظلة ؛ ولكن . . . لماذا يبدو عليك الاهتمام الشديد ؟ ! » . فقال سمير : « إننى أشعر أن فى الأمر . . . ! يحسن بى أن أذهب إلى الزورق لكى أبعث ببرقية لاسلكية ؛ فقد يكون الأمر مهمًا » .

٢٠٠٧ ...

٥ — جَوْلَةٌ اسْتِطْلاعِيَّةٌ

عاد سميرٌ أدْرَاجَه ، نحوَ الخليجِ الصغير ، حيثُ يرْسُو الزّوْرقُ « نَجْمَةُ الحظِّ » وأَخذَ الأطفالُ ينظرون إليه فى اهتمام وهو يبْتَعِدُ عنهم . وكانت أَنسامُ أَكثرَهم دَهْشَةً ، فقالت : « ماذا يَعْنِى سميرٌ بذلك ؟ أَرْجو ألاَّ نكون مُقبِلِينَ على مُغامرة جديدة فى هذا المكانِ ، حيْثُ لا يوجَدُ سِوَى البحرِ والرياحِ والطيور . يا تُرَى ! ماذا سيَحْدُثُ ؟ ! » قال أسامةُ : « إن سميرًا لن يُخبرنا بشىء الآنَ فلا تُضَايقوه بالأسئلةِ الكثيرةِ . إنى سأذهبُ لأنامَ ؛ فقد بدأَ الهواءُ يشتدُّ والجوُّ يميلُ إلى البرودةِ ، إن هذه الخيمةَ ستكونُ ضيِّقةً ولن تَكْفِيَ ثلاثتَنَا وكيكى والفِئرانَ ... لكنْ لا بأسَ » .

وبعدَ نحوِ نصفِ ساعة عاد سميرٌ فوجدَ الإخوةَ قد استعَدُّوا للنومِ ، بل إن أنسامَ قد نامتْ واستغرقَتْ فى النومِ ، وصاحتْ إلهامُ من مكانِها داخلَ الخيمةِ : « أَكُلُّ شىء على ما يُرامُ ؟ » . فأجابها سميرٌ : « نعم ! وقد تلقَّيْت رسالةً لاسلكيةً تفيدُ أن والدتكِ فى تحسُّن مستمرٍّ ، وأن صحَّتها قد تقدَّمَتْ » ولكنَّ إلهامَ كانت تُريدُ أن تعرفَ سبب اهتمامِ سميرٍ بأمرِ الطائرةِ . فقالت : « وماذا فعلْتَ بشأنِ رسالتِك عن الطائرةِ ؟ هل أَرسَلْتَها ؟ » . أجاب سميرٌ باقتضاب : « نعم ! إنها ليستْ ذاتَ أهمِّيةٍ فلا تُتْعِبى نفسَك فى التفكيرِ فيها ..... ليلتُكِ سعيدةٌ ! » .

وما مضتْ دقيقتان حتى كان الجميعُ نِيامًا ، وأوّلُهم كيكى التى استقرَّتْ فوقَ بطنِ طريف ونامتْ ، بالرغم من أنه أبعدَها عن جسمِه عدّة مرّات قبل

أن يَغلِبَه النومُ ، ولم يظلَّ ساهرًا سِوَى فِئرانِ أسامةَ الثلاثة التى نَشِطَتْ لاستطلاعِ المكانِ الجديدِ والتعرُّفِ عليه . وكان الهدوءُ يسودُ المكانَ كلَّه ، وكان القمرُ يَعْبُرُ صفحةَ السماء ، مرسلاً أشعَّتَه الفضيةَ فتغمُرُ الجزيرةَ والبحرَ بنورِها الهادئِ .

وأشرقَ على الجزيرة صباحٌ جميلٌ مُنْعِشٌ ، وأخذَ النسيمُ الباردُ يهُبُّ فى رِفقٍ . واستيقظَ الأطفالُ وأسرعوا يتسابقُون نحوَ الشاطئِ لينعَمُوا بالسباحةِ فى البحرِ ، وأخذُوا يلعبون ويمرَحُون حتى إذا أخذُوا حظَّهم من ذلك كلِّه عادُوا لتناوُلِ إفطارِهم ، وجلسُوا يأكلون ويتباحثون فيما عسَاهُم يفعَلون فى ذلك اليومِ . فقالت أنسامُ : « ماذا نفعَلُ اليومَ ؟ ! إننى أقترِحُ أن نقوم بجولَة فى أنحاءِ الجزيرةِ لنستكشِفَها ونُطلِقَ بعضَ الأسماء على أجزائِها المختلفة » .

وكان سميرٌ يتناولُ إفطارَه صامتًا ، فالتفتَ إليه طريفٌ وقال : « ماذا تَنْوِى أن تفعَلَ اليومَ ؟ هل تأتى معنا لاستِكْشافِ الجزيرةِ ؟ » . فأجاب سميرٌ قائلا : « بما أنكم ستكونون مشغولين اليومَ بالتَّجوُّلِ فى أنحاء الجزيرةِ فإنه لا مانِعَ من أن آخُذَ الزَّورق فى جَولَة استطلاعية بينَ الجزُرِ المُتناثرةِ حولَنا » . فقالت إلهامُ فى دَهْشَة عظيمة : « هل تذهَبُ فى مثلِ هذه الرحلةِ بدُوننا ؟ إننا سنأتى معك إذا ذهبت فى هذه الرحلةِ » . ولكنَّ سميرًا قال : « سأذهَبُ وحدِى هذه المرَّةَ ، وأعِدُك أن آخُذَكم معى فى المرةِ القادمةِ » .

وأحسَّ أُسامةُ أن هناك شيئًا غيرَ عاديٍّ . فسأل سميرًا : « هل حدَثَ شىءٌ ؟! هل هناك أمرٌ مهمٌ ؟ » . فقال سميرٌ مُسْرِعًا : « لا ! لا ! إننى أريدُ أن

أَقومَ بهذه الجولةِ وَحدِى ، هذا كلُّ ما هُنالك ، ثم إنَّنِي إذا قمتُ بهذه الجولةِ وَحدِى اليومَ فسأعرفُ أحسنَ الأماكن التى آخُذُكم إليها فى المرةِ القادمةِ ... أليسَ كذلك ؟ ! » فقال أُسامةُ : « حسناً ! ! افعلْ ما يَبدُو لك ؛ فإنها عُطلتُك أيضاً ! » .

وهكذا انطلَقَ سميرٌ وَحْدَه فى ذلك اليومِ ، وسمع الأَولادُ صوتَ مُحَرِّكِ الزَّوْرقِ وهو يشُقُّ الماءَ فى طريقِه إلى الجُزُرِ الأُخرى . وقال أُسامةُ : « إن سميرًا يَنْوِى القيامَ بعمل مَا ، وأَعْتقِدُ أنه يتعلَّقُ بتلك الطائراتِ التى تَمُرُّ من هنا . كم كنتُ أَوَدُّ أن يُخبِرَنَا بحقيقةِ الأَمرِ ! » . فقالت أنسامُ فى قلقٍ : « إننى أَرجُو أن يَعُود سالمًا ! إنى لا أُحِبُّ أن نَظَلَّ هنا على هذه الجزيرةِ ولا يسمعَ أحد عنّا شيئًا ، أو يعلمَ بمكانِنا » فقال طريفٌ : « آه ! إننى لم أُفَكِّرْ فى هذا الاحتمالِ قبلَ ذلك ! ولكنْ لا تقلقِى يا أنسامُ ولا تَشْغَلِى بالَك ، فسيعودُ سميرٌ سالمًا ، فإنه أَحْكَمُ من أن يُعرِّضَ نفسَه للخطرِ » .

ومرَّ اليومُ فى مَرحٍ وسرور ، وذهبَ الأَطفالُ نحوَ الصخورِ العاليةِ ، وأَخذُوا يُراقبُون الطيورَ البحريةَ وهى تُحلِّق فوقَ المياهِ تنتظرُ الفُرصةَ لِكَىْ تنقضَّ على السمكاتِ التى تَقْتَرِبُ من سطحِ البحرِ ، ثم ذهبُوا إلى الشاطئِ وأَخذُوا يلعبون ويَمْرَحُون فى الماءِ وكيكى فوقَ رءُوسِهم مُكتفيةً بتوجيهِ نُصحِها وإرشاداتها إليهم : « امسحْ قدميْك ! أين منديلُك ؟ ! اقفل البابَ ! » .

وبعد أن فرَغَ الأَطفالُ من لَهْوهم ومَرَحِهم — عادُوا إلى خيمَتهم ، وجلسوا فى انتظارِ سمير ، وبدأَتِ الشمسُ تَميلُ إلى المَغيبِ ، وبَدَأَتْ أنسامُ تُحسُّ

بالقَلَقِ والضِّيقِ وتساءلَتْ : « أين سميرٌ ؟ » . فقال أسامةُ يُطَمْئِنُها : « إنه سيعودُ حالاً وسنسمعُ صوتَ مُحَرِّكِ الزَّورقِ وهو يَقْتَرِبُ » ولكنَّ الشمسَ غَرَبَتْ واختفَتْ وراءَ الأُفُقِ ولم يَعُدْ سميرٌ ، وأَرْخَى الظلامُ سُدُولَه على الجزيرة ولم يَدْرِ الأولادُ ماذا يفعلون سِوَى الانتظارِ . فلما طال الوَقْتُ ولم يَعُدْ سميرٌ ذهبوا إلى مُخَيَّمِهم وقد استَبَدَّ بهم القلق ، وأَلَحَّ عليهم الانتظارُ ، وحاولُوا أن يناموا ولكنَّ النومَ عَصاهم . وأخيرًا نهضتْ إلهامُ وأسامةُ وذهبَتا إلى خيمةِ أسامةَ وظَريفٍ وجلسوا يتحدَّثون ، وفَجْأَةً سمعوا صوتًا كان له وَقْعُ الألحانِ العَذْبةِ فى آذانِهم ... إنهم سمِعُوا صوْتَ مُحَرِّكِ الزَّوْرقِ يقتَرِبُ من الجزيرةِ ، فقفزُوا كلُّهم واقفين ، واندَفَعُوا خارجين من الخَيْمَةِ وأُسامةُ يقول : « إنه سميرٌ ! أَيْنَ البطَّاريةُ ؟ ! » . وقال ظريفٌ : « هيَّا إلى الشاطِئِ » . وهرَعَ الإخوةُ الأربعةُ وهم يتعثَّرُون فى الظلامِ نَحْوَ الشاطئِ حتى وصلُوا فى اللَّحظةِ التى قفزَ سميرٌ فيها من الزَّوْرقِ إلى رمالِ الشاطئِ . وسألوا جميعًا فى صوت واحد : « أَيْنَ كُنْتَ ؟ ! لِماذَا تأَخَّرْتَ ؟ ! ماذا حدَثَ ؟ ! إننا لن نَترُكَك تذهَبُ وحْدَكَ بعدَ ذلك ! ! » فقال سميرٌ : « إننى آسِفٌ كلَّ الأسَفِ إذا كنتُ قد جعَلْتُكم تشعُرُون بالقلق . ولكننى لم أشأْ أن أعودَ فى أثناءِ النهارِ حتى لا تَرَانى إحدَى الطائراتِ التى تَمرُّ من هنا ؛ ولذلك انتظرْتُ هبوطَ الظلامِ . وأيًّا كان الأمرُ فقد عُدْتُ إليكم » . فصاحتْ إلهامُ : « ولكنْ . . . ألا تُخْبِرُنا بشىءٍ مِمَّا فعلتَ ؟ ! لماذا لم تكُنْ تُريدُ أن تعُودَ بالنهارِ ؟ ! ومَنِ الَّذى سيَراكَ ؟ ! وماذا يَهُمُّ إذا رآكَ أحدٌ ؟ ! » فقال سميرٌ فى بُطْءٍ : « حسنًا ! إن هناك أمورًا

غريبةً تجرى هنا فى هذه المنطقةِ المُنعزلةِ ، وأريدُ أنْ أكشفَ حقيقةَ ما يحدُث وقد تجوَّلتُ حولَ كثيرٍ من الجُزُرِ اليومَ ولكنى لم أرَ أحدًا أبدًا . والحقيقة أنى لم أتوقَّعْ أنْ أرَى أحدًا فى سُهُولةٍ ويُسْرٍ ؛ فإنَّ مَنْ يأتى إلى مثلِ هذا المكانِ لأمرٍ سِرِّىٍّ سيكونُ حَذِرًا أن يَرَاه أحدٌ . ولكنى أظنُّ أنى سأجِدُ بعضَ الآثار »

فتذكَّرتْ أنسامُ قِشرةَ البطيخِ التى مسَّتْ يدَها فى الماء فقالت : « أظن أن قشرةَ البطيخِ التى رأيْناها بجوارِ الزَّورقِ تدلُّ على أنَّ هناك غيرَنا فى هذه المنطقةِ ، ولكنْ ماذا يفعلون هنا ؟ ! » . فقال سميرٌ : « هذا هو الذى يُحيِّرُنى ! ولا يُمكِنُ أن يكونُوا يقومون بالتهريب لأنَّ الشواطِئَ هنا عليها حراسةٌ مُشدَّدةٌ » . فقالت إلهامُ : « ولكنْ هل أنت واثقٌ من أن أحدًا لم يَرَكَ ؟ ! فقد يكون هناك بعضُ المراقبين على إحْدَى الجُزُرِ » . فقال سميرٌ : « إن هذا بعيدُ الاحتمال ؛ إذْ لن يخطُرَ ببالِهم أن أحدًا سيأتى إلى هذا المكانِ المُنعزِلِ فيضعوا حُرَّاسًا على الجُزُرِ » . فأصرَّتْ إلهامُ على رأيها قائلةً : « ولكنْ لِنَفْرِضْ أن بعضَ الأعداء لمحُوك وقد جئْتَ إلى هنا ، لِكَىْ تختَفِىَ بعضَ الوقت » . فقال سميرٌ : « على فَرَضِ أن أحدًا قد رآنى فلنْ يكون له صلة بأعدائِى القدامَى ، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يتعرَّفَ علىَّ على مسافة بعيدةٍ وأنا فى داخلِ الزَّورقِ ، وسيظنُّون أنى من مُحِبِّى الطيورِ والوَحدةِ » .

وعادُوا كلُّهم إلى مُخيَّمِهم وتأهَّبُوا للنومِ . وقالت أنسامُ فى نفسها : « إننى أشعُرُ أن مُغامرةً على وَشْكِ البَدْءِ ، وقد ظنَنْتُ أنَّ هذا المكانَ أبعدُ ما يكونُ عن المُغامرات » . وكانتْ أنسامُ على حقٍّ فيما شعرَتْ به ، فهُمْ على أبوابِ مُغامرةٍ جديدة . . .

٤ مارس ١٩٥١

الفصل الثالث

١ — ماذا حدث في الليل

أشرقتِ الشمسُ ، وكان كلُّ شيءٍ يبدُو جميلاً ، ونسِيَ الإخوةُ مخاوفَ الليلةِ الماضيةِ ، وأخذَ سميرٌ يُضاحِكُهم مع أنه كان هناك شيءٌ يشغلُ بالَه . وعندما مرَّتِ طائرةٌ فوقَ الجزيرةِ ودارتْ حولَها مرَّتَين أو ثلاثًا أمرَ سميرُ الإخوةَ أن ينبَطِحُوا على الأرضِ وقال : « أرْجُو ألاَّ يرَى مَنْ فى الطائرةِ الخيمتَيْنِ » . فسأله طريفٌ : « ألا تُريدُ أن يعرِفَ أحدٌ مِنْ راكبِى الطائرةِ أنَّ ناسًا هنا على الجزيرة ؟ » فقال سميرٌ : « بلَى ، لا أُريدُ أن يعرفَ ذلك أحدٌ فى هذا الوقتِ على الأقلِّ ، فإذا سمعتم أزيزَ طائرة فأسرِعُوا بالانبِطاحِ على الأرضِ ، ويجِبُ ألاَّ نُوقِدَ نارًا فى الليلِ لأىِّ سببٍ » .

ومرتْ بقيةُ اليومِ فى سُرُورٍ ومرَحٍ ، وكان الجوُّ حارًّا ، فذهبَ الإخوةُ للاسْتِحْمامِ فى البحرِ عدَّةَ مرَّات وكيكى تُحلِّقُ فوقَهم تارةً ، وتقفُ فى انتظارِهم عَلَى الشاطِئِ تارةً أخرى وهى تصيحُ : « كيكى أخذَتْ بردًا . استدْعِ الطبيب . استدْعِ الطبيبَ . أينَ منديلُك ؟ » فضحِكَ الأولادُ وألْقَى طريفٌ بعضَ الماءِ عَليها فابتعدَتْ غاضبةً وهِىَ تصيحُ : « امْسَحْ قدمَيْك . اقفلِ البابَ » .

وهكذا استمرَّ الجميع يلهُون ويُمتِّعُون أنفسَهم بالعوْمِ والجرْىِ والضَّحك حتى أقبلَ الليلُ فعادُوا إلى مُعسكرِهم . وقال سميرٌ : « لقد تغيَّرَ حالُ الجوِّ ، وَيبْدُو أنَّ رياحًا شديدةً ستجتاحُ هذه المِنْطقةَ . يا تُرى ! هل تستطيعُ خيامُنا

أن تصمدَ للرياح ؟ » فقال طريفٌ : « إن هذا المكانَ أقلُّ جهاتِ الجزيرةِ تعرُّضًا للرياحِ ، فالصخورُ العالية تَحميه . كما أنى لم أرَ كهوفًا أو شبه كهوف فى هذه الجزيرة نستطيعُ أن نأوى إليها » .

وقال أسامةُ : « لقد ازدادَتْ حرارةُ الجوِّ وبِوُدِّى أن أذهبَ لأستحمَّ فى البحرِ مرَّةً أخرَى . » فقالتْ إلهامُ : « لقد نزلْتَ إلى البحرِ ثمانى مرَّاتٍ اليومَ . ألا يَكفيك ذلك ؟ » وقال سميرٌ : « هيا إلى النوم ، أما أنا فسأذهبُ إلى الزَّوْرَق لِكَىْ أرسلَ برقيةً لاسلكية ، وربَّما تلقيْتُ بعضَ الأنباءِ ، وسأعودُ بعدَ قليل » .

وما كادَ ينصرفُ سميرٌ حتى استغْرقَ الأولادُ فى نوم عميقٍ ماعدا طريفًا فإنه ظلَّ مُستيقظًا يُبْعِدُ كيكى عن الوقوفِ فوْقه وإنْشابِ مخالبها فى جسْمِه ، ثم ما لبث أن غلبَه النَّومُ فنام ، وذهبتْ كيكى ووقفتْ فوْقَ أسامةَ تترقَّبُ ظهورَ أحَدِ فِئرانه ، فلما رأتْ واحدًا منها أسرعَتْ تَضْرِبُه بمنقارِها ، ولكنَّ الفأرَ أسرعَ بالفرارِ ، وأصابَ منقارُها أسامةَ فهبَّ من نوْمِه صائحًا : « أيَّتُها الملعونة ! طريف ، أبعِدْ كيكى عنى ، لو أمسكْتُها لضربْتُها على منقارِها » . وأسرعَتْ كيكى إلى خارج الخيمةِ وطارتْ فوْقها ، ثم عادَ الصبيَّان إلى النوم .

وفى ذلك الوقتِ كان سميرٌ فى مقصورةِ الزَّوْرقِ يحاولُ إدارةَ جهازِ اللاسلكىِّ ، ولكنَّ سُوء الأحوالِ الجويةِ جعلَ من العسيرِ سماعَ أىِّ شىء ، وكان ضروريًّا أن يُرسِلَ سميرٌ برقيةً فى هذه الليلة ، ولذلك قرَّرَ أن يقودَ الزَّوْرقَ إلى ذلك الخليجِ الصخرىِّ الضيِّقِ ؛ فقد تسكونُ الرياحُ هناك قليلة .

وأدارَ سميرٌ محرِّكَ الزَّوْرقِ ، ولم يَمْضِ إلاَّ قليلٌ حتى كان الزَّوْرَقُ فى داخل

الخليج الصخرى ، وشرع يحاول إرسال البرقية . وبعد قليل من الوقت خُيِّل إليه أنه سمع صوتاً يقترب من جهة البحر ، فأوقف الجهاز وأخذ ينصت ولكن صوت الرياح اشتد فلم يسمع شيئاً ، فعاد إلى جهاز اللاسلكى مرة أخرى ونجح فى إرسال برقية ، ثم أخذ ينصت لعله يتلقى رداً ؛ وفجأة سمع صوتاً خلفه ، فدهش ورفع رأسه وهو يتوقع أن يرى أحد الصبيين ، ولكنه كان مخطئاً ... فقد رأى رجلاً ذا وجه قاس ، وأنف مقوس ، يحملق فيه ، فلما رأى الرجل وجه سمير صاح فى دهشة : « أنت ! ماذا تفعل هنا ؟ ماذا تعرف عن .... » وقفز سمير واقفاً ولكن الرجل عاجله بضربة قوية على رأسه بعصاً غليظة كانت فى يده فسقط فاقد الوعى ، ونادى الرجل ذو الأنف المقوس زميلاً له ، فأقبل إلى المقصورة ، وقال له الرجل الأول : « انظر ، أليس من العجيب أن نجده هنا ؟ يا ترى ! هل يعرف شيئاً ... ؟ » فقال الرجل الثانى — وكانت له لحية قصيرة كثة — : « ما دام قد جاء إلى هذه الجزيرة فلا بد أنه يعرف شيئاً . قيده وسنأخذه معنا ، وسنرغمه على الإفضاء إلينا بما يعرف » .

وتعاون الرجلان على شد وثاق سمير وهو فاقد وعيه ، ثم حملاه إلى زورق صغير كان مربوطاً إلى جانب « نجمة الحظ » وكان زورقاً ذا مجدافين . واستعد الرجلان للتجديف لكى يعودا إلى زورقهما البخارى الذى كانا قد تركاه بعيداً عن الجزيرة . وقال الرجل ذو الأنف المقوس : « أتظن أن هناك أشخاصاً آخرين معه ؟ إن الزورق لم يكن به سواه .... » فأجابه الرجل ذو اللحية : « لا ، إننا عندما رأينا زورقه أمس لم يكن على

ظهره غيرُ رجل واحد ، فلو أنَّ هناك أحدًا غيره لرأيناه . لقد كان وحده ولم يفطنْ إلى أننا كنا نراقبه في أثناء عودته إلى هنا ليلة أمس » فقال الرجلُ الأولُ : « إنني أعتقد أيضاً أنه ليس هناك شخص آخر ، ولكن ، ألا يحسن بنا أن نحطم زورقه على سبيل الحيطة ؟ فقال الرجلُ الآخرُ : « بلى .... وحطِّمْ جهاز اللاسلكي أيضاً » . وأحضر الرجلُ مطرقةً وانهالَ بها على محرك الزورق تحطيماً وتهشيماً ، ثم استدار إلى جهاز اللاسلكي وحطمه كذلك ، ثم ابتعد الرجلان بزورقهما ومعهما سمير لا يدرك مما حوله شيئاً .

وصل الرجلان إلى زورقهما البخاري وصعدا إليه وحملا سميرا معهما . وسرعان ما ارتفع صوت المحرك في سكون الليل ولكن أحدًا لم يسمعه سوى كيكي .

وظلَّ الأطفالُ نائمين في هدوء يحلمون بالأمواج والرمال والطيور البحرية ، ولم يكن لديهم فكرة عما حدث ، أو عن أن سميرًا لم يعد تلك الليلة . واستيقظ طريف أولاً ، فقد كانت كيكي تقف على كتفه وتجذب أذنه بمنقارها . فصاح بها : « ابتعدي عني ، هل طلبتُ منك أن توقظيني الآن ؟ » . ثم استيقظ أسامة ، فلما لم يجد سميرًا قال : « هل استيقظ سمير قبلنا ؟ » فقال طريف : « يبدو ذلك ، ومن المحتمل أن يكون قد ذهب إلى البحر ليستحم . أما كان الواجب عليه أن يوقظنا ؟ هيا نوقظ إلهام وأنسام ونلحق به عند الشاطئ » .

ولم تمض لحظات حتى كان الصبية الأربعة يتسابقون نحو الشاطئ وهم يتوقعون رؤية سمير في الماء ، ولكنه لم يكن هناك ، وقالت أنسام : « أين

وتعاون الرجلان على شد وثاق سمير وهو فاقد وعيه

هو ؟ وأين الزورق ؟ » وأخذ الصبية يصوبون نظرهم إلى المكان الذى كان الزورق يقف فيه . ثم قال طريف : « ربما أخذه سمير إلى الخليج الصخرى » . فقال أسامة : « إذا ، هيا بنا إلى الخليج الصخرى ؛ فربما غلب النوم سميرا فنام فى الزورق » . فقالت إلهام : « أغلب الظن أن هذا هو الذى حدث ، فهيا إلى هناك لكى نفاجئه » . وانطلق الإخوة الأربعة مسرعين حتى وصلوا إلى الصخرة التى تطل على الخليج ، فرأوا الزورق هناك يترجح مع حركة الأمواج التى كانت تدخل إلى الخليج ثم تعود إلى البحر . وقالت إلهام : « هذا هو الزورق ، لقد أتى به سمير إلى هنا » . وقال طريف : « إن سميرا ليس على ظهره ، ولا بد أنه فى داخل المقصورة ، فهيا بنا » . ولكن أنسام قالت : « نناديه أولا ، إننى أريد أن أعرف ما إذا كان هنا أم لا » . وانطلقت أنسام تناديه بأعلى صوتها قبل أن يمنعها أحد . . . ولكن سميرا لم يخرج من المقصورة ولم يظهر على سطح الزورق . فبدا القلق يتسرب إلى نفوس الإخوة ، وعاد طريف ينادى ولكن لم يجبه أحد ، فأسرع الإخوة يهبطون فى الصخور إلى الزورق ، ونظروا داخل المقصورة . وقالت إلهام منزعجة : « إنه ليس هنا ، فأين هو إذا . . . ؟ » فقال طريف : « بما أن الزورق هنا فلا بد أنه فى مكان قريب وربما كان يتجول فى الجزيرة ثم يعود بعد قليل » .

وكان الإخوة على وشك مغادرة الزورق عندما رأى أسامة شيئا ، فأمسك بذراع طريف . فقال طريف منزعجا : « ماذا حدث ؟ » . فأشار أسامة فى صمت إلى جهاز اللاسلكى المحطم . فقال طريف بصوت منخفض :

« من الذى فعلَ ذلك ؟ » وبدأت أنسامُ تبكى ، وصعِد طريفٌ إلى سطح الزَّوْرقِ ، وصاحَ أسامةُ صيْحَةً عظيمةً جعلتِ الجميعَ يُسْرِعُون إليه . فقال لهم : « انظرُوا ، لقد تحطَّمَ مُحرِّكُ الزَّوْرَقِ . يا تُرى ! ماذا حدَثَ ؟ » وقالتْ إلهامُ : « وأينَ سميرٌ ؟ » فأجاب أسامةُ فى بُطْءٍ : « لقدْ اختطَفَه بعضُ الأعداء ، وأنا أرجِّحُ أنهم لا يعرِفون أنَّنا هنا . لقد أصبحْنا مسجونينَ على هذه الجزيرة » .

٢ – الإخوة فى مأْزِقٍ

٢٣ مايو ١٩٥٧

استبدَّ الخوفُ بالإخوةِ فجلستْ أنسامُ لا تقْوَى على الوقوف ، وجلستْ إلهامُ بجانبِها ، ووقفَ أسامةُ وطريفٌ ينظرَانِ فى المُحرِّكِ المُحطَّمِ كأنَّهما لا يُصدِّقانِ عُيونَهما . وأخيراً قالت إلهامُ : « إنه حُلمٌ ، لا يمكنُ أنْ يكونَ هذا حقيقةً . لقد كان كلُّ شىءٍ على ما نهْوَى فى الليلةِ الماضيةِ ، والآن ...... »

فقال أسامةُ : « والآن — تحطَّمَ الزَّوْرَقُ فلا نستطيعُ مُغادَرةَ الجزيرةِ ، وتحطَّمَ جهازُ اللاسلكىِّ فلا نستطيعُ إرسالَ برقيةٍ واحدة .... وقد اختفَى سميرٌ ..... إنها الحقيقةُ ...... إنها ليستْ حُلماً » . وقالت أنسامُ – وهى تمسَحُ دُموعَها – : « فلنجلِسْ جميعاً ولا نفترقْ أبدًا » . فوضع أسامةُ يدَه على كتِفِها وقال : « لا تنزَعِجى يا أُختاه فقد وقعنا فى مآزق أشدَّ من هذا المأزِق » فقالت إلهامُ : « لا . هذا هو أشدُّ المآزِقِ حرَجاً » وأحسَّتْ كيكى بما يشعُرُ به الأطفالُ من خوْف فجلسَتْ ساكنةً على كتِفِ طريف وهى تهَمْهِمُ بأصوات خافتة لِكَىْ تهدِّئَهم . وبعدَ قليل تحسَّنَتْ حالُ الإخوةِ ، وهدَأَتْ نفُوسُهم بعضَ الهُدُوء .

فقام طريفٌ وأحضرَ شيئاً من الشيكولاتةِ ووزّعَ عليهم ، فأخذُوا يأكلُونها ببُطْءٍ ؛ فقد ذهب الخوفُ بشهيَّتِهم . وأعْطى طريفٌ كيكى قطعةً من الشيكولاتةِ ، ثم قال : « فلنفَكّرْ .... ماذا حدثَ فى الليلةِ الماضيةِ ؟ » فقال أسامةُ : « إننّا نعلمُ أن شيئاً خفيًّا عنا كان يُقلِقُ سميرًا ، وأَعتقِدُ أَنّها تلك الطائراتُ وقد شعَرَ سمير أَن شيئاً غريباً يحدُثُ هنا ، ولذلكَ خرَجَ وَحْدَه فى جَوْلَةٍ استِطْلاعية فى الزَّوْرق ، ومِنَ المُحْتَمل أن أحدًا قد رَآه » . فقالت إلهامُ : « نعم . ورُبَّما عرَف أعداؤُه أنه على هذه الجزيرةِ ، ورُبما كانوا قد تتبَّعُوه على بُعْد عظيمٍ مُستَعِينينَ بمِنظارٍ مُعظِّمٍ ، لِكَيْلا يَغيبَ عن أنظارِهم . وأيًّا كان الأمرُ فإنه لاشكَّ فى أنهم جاءُوا إلى هنا » . فقال طريفٌ : « وقد وجَدُوه هنا .. إنه من سُوءِ الحظِّ أنه أراد أن يستعمِلَ جهازَ اللاسلكىِّ ليلةَ أمسِ » . فقالت إلهامُ : « لو لم يعثرُوا عليه هنا لَفتَشُوا الجزيرةَ كلَّها ، ولَعَثَروا علينا أيضاً ، أما الآنَ فإنى أعتقِدُ أنهم لا يعرفُون أننا هنا » . فقالت أنسامُ : « وحتى إذا عرفوا أنّنا هنا فليْسَ لذلك أهميَّةٌ ؛ فهم واثقون أننا لا نستطيعُ مُغادرةَ الجزيرة » . وقال طريفٌ : « لا رَيْبَ أنهم قد جاءُوا إلى هذه الجزيرةِ فى زوْرَقٍ بُخارىٍّ ، وتركُوه بعيدًا ، ثم اقترَبُوا فى زَوْرَقٍ صغيرٍ ذى مجاديفَ حتى لا يُسْمَعَ له صوْتٌ ، ورُبَّما هداهم إلى هذا الخليجِ أَنّ سميرًا يُضىءُ نورَ المقصورةِ » فقال أُسامةُ يتمِّمُ كلامَ طريف : « وأعتقِدُ أنهم فاجَئُوه وتغلَّبُوا عليه وأخذُوه معهم ، و لا يعلَمُ إلا الله ماذا حدَثَ له » . وسألَتْ أنسامُ فى صوْت مُرْتَعِش : « هل .. . هل يُؤْذُونَه ؟ » ولم يجِبْ أحدٌ عن سُؤَالِها ؛ فبدأَتْ تبكى

مرَّةً ثانيةً ، فقال لها أُسامة : « لا تبتئسى . فطالما وَقعنا فى مآزِق أشدَّ من هذا المأزق بالرَّغم مِمَّا تقوله إلهامُ ، وسنَخرُجُ من هذا المأزِق سالمين بعَوْنِ اللهِ وتَوْفيقِه » . فقالت أَنسامُ وهى تَبْكى : « إنّى لا أعرفُ كيف نَخْرُجُ من هنا . وأنت أيضاً لا تعرفُ » .

وحكَّ أُسامةُ رأسَه ونظرَ إلى طريف فقال : « يَجِبُ أن نُفكِّرَ فى خطَّةٍ ما أو نُفكِّرُ فى كيفيةِ الهربِ من هنا ، وفيما يجبُ علينا عملُه حتى نَهْربُ » . وسألتْ إلهامُ فَجْأةً : « ألا تظنُّون أنْ يأتىَ أحد أصدقاء سميرٍ للبحثِ عنه عندَما تنقطِعُ برقياته ؟ » فقال أُسامةُ : « وما جَدْوَى ذلك ؟ إنَّ هنا مئات من هذه الجُزُرِ الصغيرةِ ، وسيَحتاجُ البحثُ فيها عنَّا أو عن سميرٍ إلى بضعِ سنينَ » . فقالت إلهامُ : « إننا نستطيعُ أن نوقِدَ ناراً فوقَ قِمَّةِ الصخورِ فيستطيع الباحثونَ أن يرَوْا دخانَها بالنهارِ وضوءَها بالليلِ » . فقال طريفٌ : « نعم ، إنَّنا نستطيعُ ذلك ولكنَّ الأعداءَ سيَرَوْنَ النارَ أيضا ، وسيأْتون للبحثِ عنّا قبل أن يفعلَ غيرُهم ذلك » .

وسادَ الصَّمْتُ بينَهم ولم يكُنْ أحَدٌ يعلَمُ مَن هم الأعداء . . . . ولكنَّ الأطفالَ شعرُوا أن هناك أعداءَ غامضِينَ أقوياءَ . وأخيراً قال أُسامةُ : « يظهرُ أنه لا مفرَّ من اتِّباعِ خطَّةِ إلهام . . . . . . نُوقِدُ ناراً . وسنُخاطرُ مُخاطرةً كبيرةً ، فقد يرَى الأعداءُ النارَ . ولكنْ يجبُ أن نفعلَ شيئاً لنساعدَ مَنْ سيَبْحثُ عنا ، ونستطيعُ أن نراقبَ البحرَ لِنرَى الأعداءَ وهم قادمون » . فقالت إلهامُ : « ولكنِ أين نختبِئ ؟ إن هذه الجزيرةَ ليْسَ بها مكانٌ واحدٌ

يصلحُ للاختباءِ فيه . » فقال طريف : « هذا صحيح . فليسَ في هذه الجزيرة كهوفٌ أو أشجارٌ كثيفةٌ ، وليس بها سوى بعضِ الشجيرات الصغيرةِ والنباتاتِ القصيرةِ البرّيّةِ كما أنّ صخورها شديدةُ الانحدارِ ، ولا يمكنُ استكشافُها . إننا في مأزقٍ حرجٍ » . وسألت أنسام : « ألا يمكننا أن نفعلَ شيئًا لمساعدة سميرٍ ؟ » فقال طريف : « إذا كنّا لا نستطيعُ عملَ شيءٍ لمساعدة أنفسنا فكيف نستطيعُ عملَ شيءٍ لمساعدةِ سميرٍ ؟ إننا إذا استطعنا أن نهربَ من هنا وأن نرسلَ برقيةً إلى أصدقاءِ سميرٍ — فإن ذلك يكونُ رائعًا . ومع ذلك فإنّه يُخيَّلُ إليَّ أننا لا نستطيعُ عملَ شيءٍ إلا أن نبقى هنا وننتظرَ » . فقالت إلهامُ : « مهما يكنْ من شيءٍ فإننا إذا اضطررنا إلى البقاءِ هنا بعضَ الوقتِ فإنّ معنا كميّاتٍ كبيرةً جدًّا من الطعامِ تكفينا مدّةً طويلةً » . فقال طريف : « يحسنُ بنا أن نأخذها بعيدًا عن الزّورقِ . وإني لأعجبُ ، لماذا لم يأخذ الأعداءُ شيئًا منها معهم . ربّما عادوا في طلبِها . . . فلنسبقهم نحن . ونستطيعُ أن نخفيَ هذا الطعامَ بين بعضِ الشجيرات والأعشابِ النامية » .

وكان هذا الحديثُ قد أزالَ حالةَ القلقِ والخوفِ عن الإخوةِ ، فقال أسامةُ : « إنني أرى أن نتناول إفطارنا أوّلاً . فهيّا بنا إلى الأكل . » وبدأ الإخوةُ يتناولون طعامهم فشعروا بكثيرٍ من التحسّنِ وهدوءِ النفس . . .

وبعد أن انتهوا من تناول الطعام صعِدَ طريفٌ إلى سطحِ الزّورقِ وكان الجوُّ حارًّا فقال لهم : « هيّا إلى العملِ قبل أن تشتدَّ حرارةُ الجوِّ » . وتقرّرَ أن

يذهبَ أُسامةُ وإلهامُ لِجمعِ الأخشابِ وإيقادِ نارٍ كبيرةٍ فوقَ قِمَّةِ الصُّخورِ .
وقال أُسامةُ : « إننا لا نعرفُ ما إذا كانت تلك الطائراتُ التى تمُرُّ من فوقِنا طائراتِ الأعداءِ الغامضين أم ليستْ طائراتِهم . وأيًّا كان الأمرُ فقد تمُرُّ طائرةٌ صديقةٌ فترى النارَ وتُرسِلُ لنا النّجدةَ ، وسنُحيطُ النارَ بالأعشابِ البحريةِ لأنها تبعثُ دخانًا كثيفًا » .

أما طريفٌ وأنسامُ فكانَ عليهما أن يحمِلا الطعامَ والمُؤَنَ من الزّورقِ إلى الجزيرةِ . وقال لهما أُسامةُ : « خُذا كلَّ علَبِ الطعامِ وانقُلاها إلى الخيْمةِ لأنه لو جاءَ الأعداءُ فى هذه الليلةِ واستوْلَوْا على هذا الطعامِ فسيكُونُ فى ذلك هلاكُنا وسنموتُ جُوعًا » .

وأخذَ الإخوةُ الأربعةُ يعمَلون فى هِمَّةٍ ونشاط : فأخذَ طريفٌ وأنسامُ يحمِلانِ أكياسَ العُلَبِ من الزّورقِ إلى الخيمةِ ويُفرِغانِها عَجِلَيْنِ من غيرِ ترتيبٍ ولا نظامٍ ليعُودا مُسرِعَيْنِ إلى الزّورقِ ويحمِلا كَمِّيَّةً أُخرى . وأخذتْ كيكى تفحصُ العُلَبَ المختلفةَ فى اهتمامٍ ، وتنْقُرُ هذه مرَّةً وتلك مرَّةً أُخرى . . . . فقال لها طريفٌ : « من الحظِّ الجميلِ أنك لا تستطيعين فتْحَ هذه العُلَبِ ؛ لأنك إذا استطعْتِ فلن نجدَ شيئًا نأكُلُه » . وفى الوقتِ نفسِه أخذَ كلٌّ من أُسامةَ وإلهامَ كِيسًا كبيرًا من الزّورقِ ، وأخذا يتردَّدانِ على الشاطِئِ لِجَمْعِ الأخشابِ التى تلفِظُها مِياهُ البحرِ . فلما امتلأ الكِيسانِ صَعِدا بهما إلى قِمَّةِ الصخورِ ، وأفرَغَهُما أُسامةُ ، وصنعَ من الأخشابِ كُومةً كبيرةً ، وذهبتْ لتجمَعَ بعضَ الأعشابِ البحريةِ .

وبينما كان طريفٌ وأنسامُ يفرغان أكياسهما من عُلب الطعام فى الخيمة رأى طريفٌ عمودًا من الدخان يتصاعدُ فى الهواء ، فصاح بأنسام : « انظرى . . . لقد أشعل أسامةُ النار . . » وكان الدخانُ كثيفًا جدًّا . وتحقق الإخوةُ أنه سوف يُرى من بُعد . » وقال أسامةُ : « يحسنُ أن نُبقى أحدنا هنا لتغذية النيران بالعُشب والخشب ، وليُراقب البحرَ ، حتى إذا أقبل الأعداءُ أو الأصدقاءُ رآهم » فقالت إلهامُ : « وكيف نعرفُ أن القادمين أعداءٌ أو أصدقاءُ ؟ » فقال أسامةُ : « إننا نستطيعُ أن نعرفَ ، ويجبُ علينا إذا رأينا أحدًا قادمًا نحوَ الجزيرةِ أن نختبئَ – إذا استطعنا أن نجدَ مكانًا نختبئ فيه – ثم نحاولَ أن نعرفَ ما إذا كان القادمون أصدقاءَ أو أعداءَ . ولا ريبَ أننا سنسمعهم يتكلمون ، ومن ذلك نستطيعُ أن نعرفَ الحقيقةَ . . . أظنُّ أنه يحسُن بنا نجمع كثيرًا من الخشبِ الجافِّ » .

ولما انتهى طريفٌ وأنسامُ من عملهما انضمّا إلى أسامةَ وإلهام ، وقالت أنسامُ : « لقد أخذنا كلَّ شيء يؤكَلُ من الزورقِ وصارَ لدينا كميةٌ هائلةٌ من الطعام تكفينا مُدةً طويلةً . . . ولكنْ ألا تشعرُونَ بالجوع الآنَ ؟ » فأجابَ أسامةُ : « نعمْ : إننى جوعانُ ، وأفضِّلُ أنْ نتناولَ طعامنا هنا فوقَ الصخورِ لأنه من الضروريِّ أن يبقى أحدُنا هنا ليُغذّيَ النارَ فتظلَّ مشتعلةً » . فقالتْ أنسامُ : « إننا فى غايةِ التعبِ ؛ فقد عملنا كثيرًا اليومَ ، ولن نستطيعَ الذهابَ إلى الخيمةِ والعودة بالطعام ، كما أن النارَ لن تنطفئَ فى هذه الفترةِ الوجيزةِ . فهيَّا بنا إلى الخيمةِ لنتناولَ طعامنا هناك » . وهكذا عاد الجميعُ إلى المعسكر

حيثُ أَخَذَتْ أنسامُ وإلهامُ تُعِدّانِ الطعامَ ، ثم جلسُوا كلُّهم يأكلون . فلما شَبِعُوا قال طريفٌ : « لو لمْ يكُنْ لدينا كلُّ هذا الطَّعامِ لأصبحَ موقفُنا أكثرَ سُوءًا » .

٢ مارس ١٩٥٧

٣ — العاصفة

فى أصِيلِ ذلك اليومِ اشتدَّ هبوبُ الرِّيحِ ، وأخذَتْ تدفَعُ الأمواجَ وتَسُوقُها أمامَها إلى حيثُ تُلْقِيها بعُنْفٍ على الشاطِئِ والصخورِ مُحْدِثةً صوتًا كصوتِ الرَّعدِ . وأسرَعتْ كيكى تحتَمِى بالخيْمةِ من تلك الرياحِ الشديدة التى كانت تعْبَثُ بالخيام وتكادُ تنتَزِعُها من أماكِنِها ، وقال أُسامةُ : « إننا لنْ نستطيعَ مُراقبةَ هذه النارِ طولَ الليلِ ، وإن الرياحَ تُبدِّدُ نيرانَها ودُخانَها » . وقال طريفٌ : « يَبْدُو أن عاصفة على وَشْكِ أن تَهُبَّ » . فقالت أنسامُ : « هل تستطيعُ هذه الخيامُ أن تثبت لِلريح ؟ إن الهواءَ يكادُ ينْتَزِعُ الأوتادَ من الأرضِ . » وذهب أُسامةُ وطريفٌ وفحصا الأوتادَ ، ثم قال أُسامةُ : « إن الأوتادَ ثابتةٌ إلى الآن . ولكنْ مَنْ يعرفُ الغايةَ التى تَنْتهى إليها قوةُ الرياحِ العاصفةِ » . وقال طريفٌ : « يحسُنُ بنا أن نُجهِّزَ بطّارِيّاتِنا ؛ فقد يحدُثُ شيْءٌ فى أثناءِ الليلِ » .

وما كادَ الظلامُ يَلُفُّ الجزيرة حتى أوى الإخوةُ الأربعةُ إلى الخَيْمتَيْنِ لِيَتَّقُوا الهواءَ والرياحَ المُحمَّلةَ بالرمالِ ، وقال طريفٌ لأُسامةَ : « يا تُرَى ! أينَ سميرٌ الآن ؟ وماذا يفعَلُ ؟ » فقال أُسامةُ : « لستُ أدْرِى ؟ وأعتقِدُ أنه فى غايةِ القلقِ الآنَ من أجْلِنا » . وقال طريفٌ : « لقد اشتَدَّت الريحُ عن ذى قبل ....

أنْصِتْ ! إن الأمواجَ تهدرُ كأَنّها الرعدُ » . فقال أُسامةُ : « إن إلهامَ وأنسامَ ستكونان فى أشدّ حالاتِ الخوفِ الآن تعالَ معى لِنَنامَ معَهُما فى خيْمتِهما » . وذهبَ الاثْنانِ إلى خَيمةِ الفتاتَيْن فوجداهما مُستيقِظتَيْن . وفرحتِ البنتان عندما انضمَّ إليهما طريفٌ وأُسامةُ . وقالت أنسامُ : « إن الرياحَ تكادُ تعصِفُ بالخَيْمةِ ، وأعتقِدُ أنها لن تَبْقَى فى مكانِها طويلاً » . فقال طريفٌ يُطمْئِنُها : « بل ستَبْقَى ثابتةً ولن تنتزِعَها الرياحُ » وأخذتْ كيكى تقولُ فى صوتْ مُنْخفِضٍ : « اقفلِ البابَ . . . . . استَدْعِ الطبيب . . . اقفلِ البابَ . . . » وكان صوْتُ الرياحِ قد أزعجَها كما أزْعجَ أنسامَ .

ولم تَمْضِ لَحظاتٌ حتى سَمِعَ الإخوةُ صَوْتَ شىءٍ يُرَفْرِفُ فى عُنْفٍ هائل . وفَجْأةً طارتِ الخَيْمةُ وبَقِىَ الأطفالُ واجِمِينَ لحْظةً والرياحُ تَزْأرُ وتعْوِى من حوْلِهم ، وقد تلاشت الخَيْمةُ وطارتْ مع الزوابعِ ولم يَعُدْ يحْمِيهم شىءٌ سِوَى أغْطِيَتِهم الخفيفةِ ، وصرختْ أنسامُ خوْفاً وأَضاء طريفٌ بطَّاريَّتَه وقال : « لقد طوّحتْ العاصفةُ الخَيْمةَ . هيَّا بنا إلى خَيمتِنا » . وقبلَ أن يتحرّكَ أحدٌ منهم كانتِ الخيمةُ الثانية قد طارتْ فى الهواء وتبِعتْ أُخْتَها . فصاح طريفٌ : « لقد ذهبَتْ خيمتُنا أيضاً ، فماذا نفعلُ الآنَ ؟ » فصاحَ أُسامةُ حتى يستطيعُوا سماعَه : « خيرٌ لنا أن نذهبَ إلى الزّورقِ ، فضعُوا أيْدِيكم بعضَها فى بعضٍ ، وسأَسيرُ أمامَكم » .

سار أُسامةُ فى المُقدّمةِ وهو يُمسِكُ بيدِ إلهامَ ، وخلْفَهما طريفٌ مُمْسِكًا بيدِ أنسامَ ، وقد التفّ كلٌّ منهم فى غطائِه الخفيفِ يتّقِى به لَذْعَ الهواء

وفجأة طارت الخيمة

والرمال ، وكانت كيكى مُحْتَمِيةً بطريفٍ . واتَّجه الجميعُ نحْوَ مكان الزَّورقِ وفَجْأَةً شعَرَتْ إلهامُ بأسامة يَجْذِبُ يَدَها بشِدَّة ، ثم انفلَتَ منها ، وسمِعَتْ إلهامُ صرْخَةً مكتومة ، فصاحَتْ فى فزَعٍ : « أُسامة . . أُسامة . . ماذا حدَثَ ؟ » . ولكنها لم تسمعْ إجابةً . وجاء طريفٌ وأنسامُ إلى جانبها وقالا : « ماذا حدَثَ ؟ أينَ أُسامةُ ؟ » وأضاء طريفٌ بطّاريَّته وأدارَ نُورَها فى المكانِ ، ولكنْ لم يكُنْ هناك أىُّ أثرٍ لأُسامةَ . . . . فهل أطاحَتْ به العاصفةُ ؟ وصاح طريفٌ : « أُسامة . . أُسامة . » ولكنْ . ما من مُجيبٍ . وأخذ الثلاثةُ يَصِيحُون بأعلى صَوْتِهم : « أُسامة . . أُسامة . . » وخُيِّلَ لطريفٍ أنه سَمِعَ صوتاً يُجيبُه . ولكنْ . . من أينَ أتى الصَّوتُ ؟ وتكرَّر الصوتُ مَرَّةً أخرى وكان آتياً من تَحْتِ قدمَيْه ، فوَجَّهَ ضَوء البطاريَّةِ إلى الأرضِ ، وفى غَمْرةِ الدَّهشةِ والفزَعِ رأى رأْسَ أُسامةَ وَحْدَه ظاهراً فوقَ سَطْحِ الأرضِ ، وصرختْ إلهامُ رُعْبًا ، وركَعَ طريفٌ على رُكْبَتَيْهِ وقد عقَلتِ[1] المُفاجأةُ لسانه ، وأخذَ يُحَمْلِق فى رأْسِ أُسامة . . رأْسِهِ وحْدَه . . . . ثم تبَلَّجَتْ له[2] الحقيقةُ فى الحال ؛ فقد سار أُسامةُ فوقَ حُفْرة غطَّتْهَا الأعشابُ النامِيةُ ، فسقطَ فيها . وصاح طريفٌ : « هل أنت بخَيْرٍ ؟ » فقال أُسامةُ : « نعم . . نعم ، ناولْنى بطاريَّتك فقد سقطَتْ بطاريَّتى ، وقد سَقَطْتُ فى حفرة كبيرةٍ ، ويُخَيَّلُ إلىَّ أننا نستطيعُ أن نَحْتَمِى بها » . وأعطاه طريفٌ بطاريَّته فاختَفى رأْسُ أُسامةَ ثم ظهر ثانيةً وقد بدَا منظره غريباً بين النباتات والأزهارِ البَرِّيةِ . وقال : « إنها حفرةٌ كبيرة ، وتستطيعون أن تنزِلُوا

---

(١) عقلت المفاجأة لسانه : من شدة المفاجأة لم يستطع أن ينطق . (٢) تبلجت : وضحت

أليها لتحتَمُوا بها من هذه الرياحِ » . فنزلَتْ إلهامُ ثم أنسامُ وتبِعهما طريفٌ . وقد فَرِحَ الجميعُ بعثُورِهم على أُسامةَ ، ثم بعثُورِهم على مكانٍ يحفظُهم من العاصفةِ ، وقال أُسامةُ : « إنها حُفرةٌ طبيعيةٌ ، ولـكنَّ النباتاتِ البَرِّيةَ والأعشابَ نَمَتْ على حوافها حتى غطَّتْها » . وقال طريفٌ : « إنَّنا نستطيعُ أَن نَقْضِىَ بقيةَ الليلِ هنا بعيدًا عن العاصفةِ » .

وهكذا قَضَى الأطفالُ لَيْلَتَهم فى الحفرةِ ، واستيقظُوا متأخِّرين فى اليومِ التَّالى ، لأنَّ الحفرةَ كانت مُظْلمةً . وقالت إلهامُ : « يَا لَها مِنْ لَحَظَةٍ تلك التى طارَتْ فيها الخيمةُ ! » . فقالت أنسامُ : « لقد أَحسَسْتُ بالرُّعبِ عِنْدَما اخْتَفَى أُسامةُ » . ونظر طريفٌ فى ساعتِه ثم قال : « إن الساعةَ العاشرةُ الآنَ » . فقام أُسامةُ وأَزاحَ النباتاتِ التى تَنمُو على حافَّةِ الحُفرةِ ، فتدفَّقَ نورُ الشمسِ إليهم ، ولم يكُنْ هناك أى أَثرٍ للعاصفةِ . وخرج الأطفالُ من الحُفرةِ ، وعِندئِذ عادتِ الأعشابُ والنباتاتُ إلى مكانِها فأَخْفَتِ الحُفرةَ . فقال طريفٌ : « إن هذه الحُفرةَ تصلُحُ مَخْبَأً لنا » . وكانت نفسُ الفِكرةِ قد خطرَتْ للآخرين أيضًا . فقالت إلهامُ : « نعم . ونستطيعُ أَن نَلْجَأَ إليها إذا جاءَ الأعداءُ فهم لا يعرفُونها إلا إذا سارُوا فوْقَها وهم لا يَروْنَها ، بل إننى لا أَعرِفُ أَيْنَ هى بالرَّغمِ من أَننى لم أخرُجْ منها إلا مُنْذُ لَحَظَاتٍ » . فقال طريفٌ : « هل تُريدِين أن تقولى إننا لن نستطيعَ أَن نَجِدَ الحُفْرةَ ونحن لم نَخْرُجْ منها إلاَّ الآنَ ؟! » ولـكنَّ طريفاً وَجَدَها بنفسِ الطريقةِ التى وجدَها بها أسامةُ ، فقد سَقَط فيها دُونَ أن يَرَاها ، وثبَّتَ الأطفالُ قطعةً من الخشبِ إلى جانبِ الحُفرةِ

لكيلا يضلُّوا عنها ، ثم ذهبوا إلى البحرِ حيث استحمُّوا فى مياهِه الهادئة .
وبعدَ ذلك ذهبُوا لتناوُل إفطارِهم ، وظهرتْ فئرانُ أُسامةَ لتبحثَ عن طعامِها ودخل أحدُها فى جيبِ طريفٍ وأخذ حبَّةً من الحبوبِ التى تأكلُها كيكى ، ثم خرج ووقفَ يقرضُها فوقَ رُكبةِ طريفٍ ، ولكنَّ كيكى انقضَّتْ عليه وانتزَعتْ منه الحبَّةَ ، فقفزَ الفأرُ مذعوراً إلى أسامةَ . وصاح بها طريفٌ : « أيَّتها الطمَّاعةُ الجشِعةُ ، إنك لا تُريدين هذه الحبَّةَ ، فلماذا خطفْتِها منه ؟ » . فقالت كيكى باختصارٍ : « اقفلِ البابَ » . ثم انطلقتْ تضحكُ فى أُذنِ طريفٍ ، فدفعَها عنه وقال : « سأُصابُ بالصَّممِ بقيَّةَ اليومِ » .

وكانت العاصفةُ والرياحُ قد أودَتْ بالنارِ التى أوقدَها الأطفالُ ، فقضَوا وقتاً طويلا ، وبذلُوا جُهداً كبيراً فى جمعِ الأخشابِ المتناثرةِ فى كلِّ مكانٍ لكىْ يُوقِدوها مرَّةً أخرى . وبحث الإخوةُ عن خيمتَيْهما ولكنهم لم يجِدُوا لهما أثراً وقال أسامة : « قد تكونُ الخيمتانِ الآنَ فوقَ إحدى الجُزرِ التى تبعُدُ عنا عشراتِ الأميالِ . . . فهل ننامُ فى تلك الحفرةِ هذه الليلةَ أيضاً ؟ » . فقالت أنسامُ : « لا . لا إن الحرارةَ فيها لا تُطاقُ » . فنظر أسامة إلى السماءِ وقال : « إن الجوَّ قد صار جميلاً ، فإذا استمرَّ على ذلك أمكَننا أن ننامَ فى الهواءِ الطلْقِ ومن حُسْنِ الحظِّ أن أغطيتَنا قد اشتبكَتْ فى هذه الشُّجيراتِ ولم تطِرْ » .

وجمعَ الإخوةُ ما تبقَّى من حاجاتِهم وأخفوْها فى المكانِ الذى وضعَتْ فيه أنسامُ مؤُونتَهم من الطعامِ ، ثم ذهبُوا ليطمئنُّوا على النارِ التى أشعلُوها . وجلس الأطفالُ بالقرْبِ من النارِ فوقَ قِمَّةِ الصخورِ . وقالت أنسامُ وهى تُشيرُ نحوَ

البحرِ : « ما هـذا ؟ » . فنظر الجميعُ . وقال أُسامةُ : « يظهَرُ أَنَّها بعضُ الأخشابِ ، ولعلَّ المدَّ يحملُها إلى الشاطئِ فنُضيفَها إلى النارِ » . ووضع مِنظارَه المُعَظِّمَ على عينَيْه ونظر إلى البحرِ ثم أَنْزَلَه عجِلاً ، وقد بَدَا الألمُ على وَجْهه حتى إن إخوتَه ذُعِرُوا . وقال لهم : « يُخَيَّلُ إلىَّ أن هذا الحُطامَ يُشْبِهُ زَوْرقَنَا « نجمةَ الحظِّ » . . . » . وسادَ الوُجومُ . . . . ثم قال طريفٌ : « يحسُنُ بنا أن نتحقَّقَ ، فإذا كان الزَّورق قد تحطَّمَ فى العاصفةِ ، فإن هذا يكونُ من سُوءِ الحظِّ ، إذ أنه بالرَّغمِ من تهَشُّمِ المُحَرِّكِ فإنه يُمكِنُنا عملُ شِرَاعٍ له » .

وفى سكون سار الأطفالُ نحْوَ الخليجِ الصخرىِّ حتى وصلوا إليه ، ولـكنْ لم يَكُنِ القارب هناك ، ولم يَجِدُوا سِوَى قطعة من الحبلِ ما زالَتْ مربوطةً حوْلَ

لم يكن القارب هناك ، ولم يجدوا سوى قطعة من الحبل مازالت مربوطة حول الصخور

الصخورِ . وقال أسامةُ : « لقد أَخذَتِ الأمواجُ تَدْفعُ الزَّوْرقَ ثم تَجْذِبُه معها حتى انقطع الحبلُ فاندَفَعَ مع المياهِ إلى خارجِ الخليجِ حتى تحطَّمَ على الصخورِ ثم نظرُوا إلى آثار الدِّهانِ فوْقَ جَنَباتِ الخليجِ الصخريةِ نتيجةَ اصطدام الزَّوْرقِ بها . وقال طريف : « لم يَكُنْ فى وُسْعِنا عملُ شَىءٍ لإنقاذ « نَجمةِ الحظِّ » لقد كان زوْرقاً جميلاً ولـكنَّه سىِّءُ الحظِّ ، ولو أنَّ سميراً كان هنا لَقادَ الزَّوْرقَ إلى الخليجِ الآخر وجذَبْناه فوْقَ الرِّمالِ حتى لا يُصِيبَه شىءٌ » .

وغادرَ الأطفالُ المكانَ وهم يشعرون بالحُزْنِ والأسى ، وفى الطريقِ قالتْ أنسامُ فَجْأَةً : « أَنصِتُوا ! إننى أسمعُ صَوْتَ طائرةٍ » . ورَأَى الجميعُ نقطةً بعيدةً تتحرَّكُ فى السماء ، فأَسرَعَ أسامةُ وطريفُ ينظُران إليها من خِلالِ نظَّارتَيْهما ، وصاح طريف : « لقد سقطَ شَىءٌ من الطائرةِ ! هل تَراه يا أسامةُ ؟ إنه مِظَلَّةٌ صغيرةٌ مُعَلَّقٌ فى أسْفَلِها شىءٌ ولـكنَّه ليسَ رجلاً . يا تُرى ما هو ؟ ولماذا تُلْقِى الطائرةُ مِظَلَّةً فى هذا المكانِ المُنعزِلِ ؟ كنتُ أَوَدُّ أَن يكونَ سميرٌ هنا لِيَرَى ذلك بنفسِه . إن أُمورًا غريبةً تجْرِى هنا ولا أَسْتَبْعِدُ أَنَّ الأعداءَ قد رَأَوْا دُخَانَ نارِنا ، ورُبَّمَا أتَوْا للبحث عنا ، فيجِبُ أن يَقُومَ أحدُنا بالمراقبةِ فوقَ الصخورِ ابتداءً من غَدٍ » . وهكذا وجدَ الأطفالُ أنفسَهم فى مُغامَرة جديدة .

٣ مارس ١٩٥٢

٤ — الزَّوْرق

قالت أنسامُ : « إذا كانت هذه الطائراتُ طائراتِ الأعداء — أفلا يجدُرُ بنا أن نُطفِىءَ النارَ ؟ » . فقال طريفٌ : « إذا كُنّا نريدُ أن نُساعِدَ مَنْ سيأتى لإنقاذِنا فيجبُ أن نُبقِىَ النارَ مُشْتَعِلَة ولو رآها الأعداء ، وإن أصدقاء سميرٍ عندما يجِدُون أن برقيّاتِه قد انقطعَتْ سيُرسِلُون بعضَ الزوارقِ البخاريةِ للبحث عنّا ، وعندئذٍ يرى رُكّابُها نِيرانَنا . فقالت إلهامُ : « أرجو أن يَتِمَّ ذلك قريباً ؛ فإننى لا أريد أن أبقَى هنا طويلاً ، وأَخْوَفُ ما أخافُ أن نَظَلَّ فى هذه المَتاهةِ حتى يَزْحَفَ الشِّتاء » . فصاحت أَنْسَامُ مُرْتاعةً : « لا تَتَشاءمى يا أُختاه إننا ما زِلْنا فى أوائِلِ الصَّيفِ » . فقال أُسامةُ : « إن إلهامَ مُتشائمةٌ جدًّا كعادتها » . فغضِبَتْ إلهام وصاحَتْ : « إنّنى لسْتُ مُتشائمةً ، ولكنى واقعيةٌ وأنت تُسَمِّى ذلك تَشاؤُماً » . فقالت أنسامُ : « لا تَتَشاحَنا الآنَ . . وكذلك أَبعِدْ هذه الفِئرانَ عن إلهام يا أُسامةُ فليْسَ هذا وقتَ المُشاكسةِ » ، ولوَّحَ أُسامةُ لِفئرانه فسارعَتْ إلى الاختِفاءِ فى الوقت الذى كانت كيكى تَصِيحُ بهم : « امسحْ قدميْك . ادخُلْ . امسحْ قدميْك » .

وقَضَى الأطفالُ تلك الليلةَ فى الهواء الطَّلْق ، وتخيَّرُوا مكاناً تُغطِّيهِ الأعشابُ والنباتاتُ الخضراء الصغيرةُ وفرَشُوا بعضَ أَغطِيَتِهم الخفيفةِ فوْقَها ، وناموا بعْدَ أن غطَّوْا أنفسَهم بباقى الأغطيةِ .

وفى صباح اليوم التّالِى استيقظَ الأطفالُ مُبكِّرِين ، وذهب طريفٌ وأُسامة إلى قِمّةِ الصخور حيثُ أخذا يعتَنِيانِ بالنارِ ويُغذِّيانِها بالخشب والعُشب . حتى

تصاعدَ دُخانُها عمودًا مُتكاثفًا فى الهواء؛ فقدْ كان الهواءُ ساكنًا فى ذلك الصباح.

ثم أخذَ الاثنانِ يلتقطانِ بعضَ الصُّورِ لمختلفِ الطيورِ البحريةِ والمناظرِ الطبيعيةِ ، ثم قرَّرَ الإخوةُ أن يبقى أحدُهم فوقَ قمةِ الصخورِ ليقومَ بالمُراقبةِ فقد كان مَنْ يقفُ فوقَ قمةِ الصخورِ يستطيعُ أن يكشفَ البحر إلى مسافة طويلة ، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يقترِبَ من الجزيرةِ من غيرِ أن يراه مَنْ يقومُ بالمُراقبةِ وهو على مَبْعَدةٍ ، فيكونَ لديْهِ وقتٌ كافٍ لكَىْ يُحذِّرَ الباقينَ فيُسرِعُوا إلى الاختِباء .

وقالت أنسامُ : « يحسُنُ بنا أن نُخبِّئَ عُلَبَ الطعام وباقِىَ الحاجاتِ فى تلك الحُفرة التى عثرْنا عليها . » فقالت إلهام : « أوْلَى بنا أن نُغطيَها ببعضِ النباتاتِ حتى لا يظهرَ منها شىءٌ » . وهكذا تمتْ تغطيةُ الحاجاتِ بالنباتاتِ والأعشاب بطريقة طبيعية . ثم قال طريفٌ : « سأتولَّى أنا المُراقبةَ فى الفترةِ الأولَى ، فإن كيكى ستُسلِّينى وتُبدِّدُ وحْشةَ الوَحْدةِ » .

ومرَّ يومانِ ولم يحْدُثْ شىءٌ جديدٌ ، ومرَّتْ طائرةٌ واحدةٌ على بُعْدٍ عظيم ، وألقتِ الأمواجُ بشىءٍ من حُطامِ الزَّوْرقِ « نجْمَةِ الحظِّ » .

وعندَ ظهرِ اليومِ الثالثِ كان طريفٌ يقومُ بدَوْره فى المُراقبةِ فوْقَ الصخور وكان جالسًا ينظرُ إلى البحرِ اللانهائىِّ أمامَه وهو يُفكِّرُ فى سميرٍ .. يا ترَى! أينَ هوَ الآن؟ وماذا حدثَ له؟ هل استطاعَ أن يهْرُبَ؟ وهل سيأتِى لإنقاذِهم إذا كان قد استطاعَ أن يُفلِتَ من أعدائِه؟ وماذا عن والدته؟ هل علِمتْ أن أخبارَهم قد انقطعَتْ عن سمير؟ وهل هى فى قلَق عليهم؟ وبينَما

ولمح طريف شيئاً بعيداً على صفحة الماء

كان طَريفٌ مُستغرِقاً فى هذه الأفكارِ والأسئلةِ لمَحَ شيئاً بعيداً على صفْحةِ الماءِ ، فأَسْرَعَ بالنظرِ إليه من خِلالِ منظارِه المُعظِّمِ ، فرأَى زوْرقاً بُخارِياً صغيراً . وقال فى نفسِه : « الأعداء ... » وكان على وَشْكِ أَنْ يَهُبَّ واقفاً ليُسْرِعَ إلى إخوتِه ولكنَّه تذكَّرَ أنه من المُحْتمَلِ أن يكونَ مَنْ بالقارب ينظرُونَ إلى الجزيرةِ من خِلالِ منظارٍ مُعظِّمٍ فيرَوْنَه ، ولذلك أَخذَ طَرِيف يزْحفُ حتى هبَطَ مسافةً كبيرةً ، ثم هَمَّ واقفاً وانطلَقَ يجْرِى إلى إخوتِه وصاح بهم : « هناك زورقٌ قادمٌ » . فهبَّ الجميعُ واقفين وصاحتْ أنسامُ خائفةً وقد اتَّسعَتْ عيناها : « أين ؟ أهُوَ بعيدٌ عن الجزيرةِ أم قريبٌ ؟ » فقال طريفٌ : « أَعتقِدُ أَنَّه سَيصِلُ إلى الجزيرةِ بعدَ عَشْرِ دقائقَ ، فهيَّا بنا نُسرعُ إلى تلكَ الْحُفْرَةِ لِنَخْتَبِئَ فيها » . فقالت إلهامُ : « وماذا نفعل بتلك النارِ ؟ » فقال أُسامةُ : « سنتركُها كما هى ، فلا رَيْبَ أنهم قد رأَوُا الدُّخانَ ، هيَّا بنا » . ولم تَمْضِ لَحَظَاتٌ حتى وصل الجميعُ إلى الحفرةِ فانْتَزَعَ أُسامةُ قطعةَ الخشبِ التى كانوا قد وضعُوها كعلامة على الحفرةِ وهبطتْ إلهامُ وأنسامُ أوَّلاً . وكان أُسامةُ ينظرُ حوْلَه لِيُعفِّىَ على أىِّ أثرٍ تركَتْه أقدامُهم ويُمكِنُ أن يَنِمَّ عليهم ، وصاح فيه طريفٌ بصبرٍ نافِدٍ : « ماذا تنتظرُ ؟ هيَّا بنا إلى داخلِ الحُفرةِ » وهبط طريفٌ إلى الحفرةِ أوَّلاً ، ونزلَ على أثرِه أُسامةُ ، ثم جذَبَ الأعشابَ والنباتاتِ الناميةَ حوْلَ فتحةِ الحُفْرَةِ حتى تُخفيها كُلَّ الإخفاء وقال : « لن يستطيعَ أحدٌ أن يعرفَ أن هنا مَخْبأً كهذه الحفرةِ إلا إذا سار فوْقَها كما فعلْتُ أنا يوْمَ أن كَشَفْنا وجودَها ، إنى أشعرُ كأنى أرْنَبٌ بَرِّىٌّ من أرانبِ الجبلِ ، فما رأْيُكم فى أن

يحفرَ كلٌّ منا نفقاً ينامُ فيه ؟ » فقالت أسامةُ : « ليس هذا وقتَ مِزاحٍ » . وقال أسامةُ : « يجبُ ألاَّ نتكلَّمَ بصَوْت عالٍ . وإذا سمِعْنا أحداً يقترِبُ فأنصِتُوا جميعاً واحبسُوا أنفاسكم ، حتى نتبيّنَ القادمين : أأصدقاء هم أم أعداء ؟ فإنها تكونُ كارثةً لو كانوا أصدقاء وتركْناهم يرحَلُون وحْدَهم » ، وكان هذا خاطراً مُزْعِجاً وأشدَّ أثراً فى نفوسِهم من الوُقوعِ فى أيْدِى الأعداء . وجلس الإخْوَةُ صامِتينَ ، يُفكرُّون ... أهُمْ أصدقاء أم أعداء ؟ وقال طريفٌ فجْأةً : « هش ... ش ... إننى أسمَعُ أصواتاً » وأرهفَ الجميعُ أسْماعَهم لعلَّهم يُمَيِّزُون تلك الأصواتَ ليتَبَيَّنُوا حقيقةَ أصحابِها ، وما لبِثُوا أن تَبيَّنُوا هذه الكلماتِ تُقَالُ بصَوْت خافت : « أين مِنديلُك ؟ اقفلِ البابَ . قِطَّة قطيفة لطيفة » فهمَسَ أسامةُ فى صوت غاضبٍ : « إنها هذه البلهاء كيكى . اسْكُتِى وإلاَّ جذَبْتِ انْتباهَ القادمين أيتُها الحمقاء » وأسْرَعَ طريفٌ يُمسِكُ الببْغاءَ الثرثارة فى غِلْظَة وخُشونة حتى لا تكْشِفَ أمْرَهم .

٥ — كيكى والأعداء

غضبَتْ كيكى للخُشونةِ التى عاملَها بها طريفٌ وأُسامةُ ، فانسَلَّتْ خارجةً من الحُفرةِ دُون أن ينتَبِهَ أحدٌ ، ووقفَتْ بينَ بعضِ الشُّجيْرَاتِ عَلَى بُعد قليل من مكان الحُفرةِ ، ولم يَمْضِ إلا قليلٌ حتى سمِعَ الإخوةُ المُختبِئُون فى الحُفرةِ وقْعَ أقدامٍ ثقيلة تقْتَرِبُ . ثم ما لبِثُوا أن سمعُوا صوتاً يقول : « لا بُدَّ أن هناك مَنْ يُشعِلُ هذه النارَ ويُبْقِيها مُشتعِلةً ؛ ولذلك سنُفَتِّشُ المكانَ كلَّه » .

ثم سمِعَ الأطفالُ صوْتَ إشعالِ عُودِ كبريت ، وكان أَحدُ الرجلَيْن يُشعِلُ لِفافةً ،

وألْقَى الرجلُ بالعودِ المُطْفَإ ، فسقَطَ من بينِ الأعشابِ ، واستقرَّ فوْقَ رُكبةِ إلهامَ ، فكادتْ تصْرُخُ ، وأيْقَنَ الجميعُ أنَ الأعداءَ قريبونَ جدًّا ، وقال الرجلُ الثانى : « انظر . ما هذا ؟ إنها ورقةٌ فضيَّةٌ مِمَّا تُلفُّ فيه الشِّيكولاتةُ . لابدَّ أن المَخْبأَ

ما هذا ؟ إنها ورقة فضية مما تلف فيه الشيكولاتة

قريبٌ من هنا . فقال الآخرُ : « نعم . ولكنْ أين ؟ » وصاح صوتٌ : « أينَ منديلُك ؟ أينَ منديلُك ؟ » وقفز الرجلانِ من الدَّهشةِ . قالَ أحدهما : « هل سمعتَ هذا ؟ » فقال الآخرُ : « يُخيَّلُ إلىَّ أنى سمعْتُ شيئًا ولكن هذه الطيورَ البحريةَ تُحْدِثُ ضجَّةً عظيمةً » . فعادتْ كيكى تَصِيحُ : « قِطَّةٌ قطيفةٌ لطيفةٌ » ثم انطلَقَتْ تضحَكُ بصوْتٍ مُرْتفِعٍ ، وأخذ الرجلانِ يَدُورانِ برأْسَيْهما فيما حوْلَهما . وحدث

أن كانَ اثنانِ من طيورِ البحرِ واقفَيْن على مسافة قليلة ، وعندما نظر الرجلان إليهما فتَحَ أحدُهما مِنقارَه وأصدرَ صوتًا غليظًا ، فصاح أحدُ الرجلين : « هل تتكلَّمُ هذه الطيورُ ؟ رُبَّما كانت ببغاءَ البحرِ » فقال الآخرُ : « ولكنَّ هذه الطيورَ في حاجة إلى من يُدرِّبُها على الكلامِ » فقال الرجلُ الأولُ : « هيَّا بنا ، إننا لن نُضيعَ وَقتَنا مع هذه الطيورِ السخيفةِ » .

وفي هذه اللحظةِ صاحت كيكى تُقلِّدُ صوتَ الزَّورقِ البُخاريِّ . فقال الرجلُ الأولُ في دهشة : « أليسَ هذا صوتَ زَورقٍ ؟ » ووقف الاثنانِ في حَيْرة لا يعرفان ماذا يفعلان . وأخيرًا قال أحدُهما : « إن هذا المكانَ يجعلُنا نتخيَّلُ أننا نسمعُ أصواتًا ، فهيَّا بنا نُفتِّشُ الشاطِئَ » . فقال الآخرُ : « هيَّا بنا ولكنْ لابُدَّ أن أقبضَ مَنْ يوقِدُ هذه النارَ ويَضطرُّنا إلى إضاعةِ وقتِنا سُدًى » .

وفَرِحَ الأطفالُ عندما سمِعُوا صوتَي الرجلَين يبتعِدانِ وَيَخفُتان شيئًا فشيئًا حتى لم يَعُدْ من المُمكِنِ سماعُهما . وعادتْ كيكى إلى الحُفرةِ وهى تُطَقْطِقُ بمنقارِها وتقولُ : « كيكى أخذَتْ بردًا استَدْعِ الطبيبَ » فقال لها طريفٌ غاضبًا : « أيَّتُها الحمقاءُ ، لقد كِدْتِ تكشِفينَ أمرَنا فإذا نَطقْتِ كلمةً واحدةً أخرى ربطْتُ منقارَكِ بِمنديلى . . . هيَّا قِفى ساكتةً على كَتِفى » فوقفتْ كيكى على كَتِفِه غاضبةً ، ووضعتْ رأسَها تحتَ جناحِها . وظلَّ الإخوةُ قابعِين في أماكنِهم مُدَّةً خُيِّلَ إليهم أنَّها ساعاتٌ ، ولم يسمعِ الأطفالُ خلالَها أصواتًا أو وَقعَ أقدام قريبة . وأخيرًا قالت إلهامُ : « إلى متى نظلُّ جالسين هنا ؟ » فقال أسامةُ : « لا أدرى ! فإنَّ من الخطرِ أن أُطِلَّ برأسِي فيرانى

أحدٌ » . وقالت أنسامُ : « إننى جوْعَانَةٌ وعَطْشَى » وكان طريفٌ يُفكرُ فى إخراجِ رأْسَه من الحفرةِ عندما سَمِعَ الجميعُ صوْتاً بعيداً . فقال أسامةُ : « هذا صوْتُ مُحَرِّكِ زَوْرَقِهم ، إنهم يَرْحَلُون عن الجزيرةِ ، وسأنتظِرُ بِضْعَ دقائقَ ثم أخرجُ » ومرَّتْ عِدَّةُ دقائقَ وازْدَادَ ابتعادُ صوْتِ القاربِ حتى تَلَاشَى ، وأَطلَّ أُسامةُ برأْسِهِ فلم يَرَ أحداً سِوَى بعضِ الطيورِ ، فخرجَ من الُحفرةِ واستَلْقَى على الأرضِ وأَخَذَ ينظرُ إلى البحرِ من خِلَالِ مِنْظَارِهِ المُعظم ، فرأى الزَّوْرَقَ مُنْطَلِقاً بأقْصَى سُرعتِه بعيداً عن الجزيرةِ ، فنادَى إخوتَه : « هيَّا اخرجُوا ، لقد ابتَعَدُوا » . وسَرْعَانَ ما كان الجميعُ جالسين يتناوَلُون طعامَهم ، فقد استبدَّ بهم الجوعُ . وقال أسامة : « لقد أفلَتْنَا من الوقوعِ فى أيْديهم بأُعجوبة ، وكنتُ أخْشَى أن يسقُطَ أحدُ الرجليْنِ فى الحُفرةِ فوْقنَا بينَ لحظة وأخرى » فقالت إلهامُ : « لقد كِدْتُ أصرُخُ بأعْلَى صوْتِي عِنْدَما نَفَذَ عودُ الكبريتِ من خلالِ الأَعشابِ وسقَطَ فوْقَ رُكبَتِى » وقال طريفٌ : « لقد كادَتْ كيكى أن تكْشف أمْرَنا عِنْدَمَا صاحَتْ تسألُ الرجلَ : « أيْنَ مِنديلُك ... إننى خجلْ منك أيَّتُها البلهاء » . فَضَحِكَتْ إلهامُ وقالت : « إنَّها غاضبةٌ . انظرْ إليها . إنها تقِفُ وظهرُها لك مُتظاهِرةً بعدم الاهتمام ؛ وذلك لأنَّكَ أنبَّتَها » فابتسم طريفٌ ثم نادَى فِئران أُسامةَ قائلاً : « تعالَىْ أيَّتُها الفِئرانُ اللطيفةُ ، خُذْ أنتَ قطعةَ الخبزِ هذه ، وأنتَ أيُّها الفأرُ الصغيرُ . . . خُذْ . . . » ولكنَّ ذلك كان أَكثرَ مِمَّا تتحمَّلُ كيكى ، فالتفتَتْ مُسرِعةً وهى تَصِيحُ بأعْلَى صوْتِها : « اقفِل البابَ . اقفل البابَ . كيكى أخذتْ بَرْداً . استدْعِ البراد . ضع

الطبيبَ على النارِ . اقفلْ قدميك . امسحِ البابَ . . . . » وانقضَّتْ كيكى كالبرقِ الخاطفِ على الفئْرانِ الثلاثةِ ، فانطلقَتْ هاربةً نحْوَ أُسامةَ ، ووقفتْ هى تَصيحُ مُقلِّدَةً صوْتَ قطارِ السكةِ الحديديةِ ، وكان الأطفالُ مُغرِقِينَ فى الضَّحِكِ لهـذه التَّمثيليَّةِ الهزليَّةِ الرائعةِ التى قامَتْ كيكى ببطولَتِها . وعادتْ كيكى فى بُطْءٍ نحْوَ طريف وهى تَسِيرُ بطريقة مُضْحِكَةٍ وتقولُ فى صوْتٍ مُتَّئِد حزينٍ : « كيكى أخذَتْ بَرْدًا . أينَ منديلُك ؟ » فأعطاها طريفٌ شيئًا من الطعام . فأخذَتْه وجلسَتْ على كَتِفِه تأكُلُه وهى تنظرُ نحْوَ فِئْرانِ أُسامة مزْهُوَّةً بانتصارها وتُصْدِرُ أَصواتًا خافتةً تدُل على السرور والفرحِ . وقالت إلهامُ بعدَ أن فرَغَ الجميعُ من الأكل : « أتظنُّون أنه من الحِكمةِ أن ننامَ فى العَرَاءِ هذه الليلةَ ؟ . إننى لا أُطيقُ النومَ فى تلك الحُفرةِ » فقال طريفٌ : « أعتقِدُ أنه ليْسَ هناك خطرٌ إذا قضيْنَا هذه الليلةَ فى الهواءِ الطَّلْقِ ؛ فليْسَ من المُحْتَمَلِ أَن يعُودَ هؤلاءِ الرجالُ مرَّةً أُخْرى لِتَفْتِيشِ الجزيرةِ فى الظلام . وإنَّه من المُؤْسِفِ أننا لم نستطِعْ أَنْ نُلقىَ عليهم نظرةً لِنَعْرِفَ أَشكالَهم » . فقالت أنسامُ : « إننى لم أُحِبَّ أَصواتَهم . فقد كانوا يَتَكَلَّمُون بلهجةٍ فَظَّةٍ[1] قاسية . وكان صوْتُهم أَجشَّ[2] خَشِنًا » . وقالت إلهامُ فَجْأَة : « إن من حُسْنِ الحظِّ أن تلك العاصفةَ قد أطاحَتْ بالخيمتَيْنِ فى تلك الليلةِ ، فلو لم تنتَزِعِ الرياحُ الخيمتَيْن لما عثَرْنَا على هـذه الحفرةِ ، ولما أمْكنَنَا أن نستخدِمَها مَخبأً نلجَأُ إليه ، ولوَقَعْنَا فى حَيرةٍ عظيمة

---

(١) فظة : غليظة شديدة .   (٢) أجش : خشن .

عندما أتى زورقُ الأعداءِ » . فقال أسامةُ : « هذا صحيحٌ ، ولكنْ أيعود هذان الرجلان مرَّةً أخرى ؟ ومهما يَكُنْ من أمرٍ فإنه يجبُ أن نُواصِلَ القيامَ بالمُراقبةِ وأنْ نجعلَ النارَ دائمةَ الاشتعالِ ، فإنَّها أملُنا الوحيدُ فى النجاةِ وهى كذلك أمَلُ سميرٍ الوحيدُ أيضاً ؛ لأنَّه إذا لم يأتِ أحدٌ لإنقاذنا فلَنْ يأتِىَ أحدٌ لإنقاذِ سمير . » فقالت أنسامُ : « لقد كان سميرٌ يُرِيدُ أن يَختَفِىَ . وهو قد اختَفَى ، ولا يعرِفُ أحدٌ مكانَه » .

ولاحَظَ طريفٌ أنَّ الدُّخَانَ لم يَعُدْ يتصاعَدُ من قِمَّةِ الصخورِ فقال : « يَبْدُو أن هؤلاءِ الرجالَ قد أطفَئُوا النارَ التى أشعَلْنَاها ، لقد أطفئُوها حتى إذا وجَدُوا أنها قد اشتَعَلَتْ مرَّةً أخرى ، وتصاعَدَ دُخَانُها ـ علِمُوا عِلْمَ اليقينِ أَنَّ هناك مَنْ يُقِيمُ على الجزيرةِ » فقال أسامةُ : « وسنذهبُ لنُعِيدَ إشعالَها ثانيةً ، وسنريهم أننا سنحتفظُ بها مُشتَعِلةً ما دُمْنا نريدُ ذلك . فهم لا يُرِيدُونها أن تشتَعِلَ حتى لا يَرَاها أحدٌ مِمَّنْ قد يَمُرُّون فى هذه المنطقةِ ، ولا يريدون أن يَأتِىَ أحدٌ لاستكشافِ هـذه المنطقةِ فى هذا الوقت . . » واتَّجهَ الجميعُ إلى قِمَّةِ الصخورِ ، فأخَذُوا يجمَعُون الأخشابَ التى بعثَرَها الرجلان فى كلِّ مكان ، وأخذُوا يُكوِّمُونها مرَّةً أخرى ؛ ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى كانوا قد فرَغُوا من عمَلِ كُومة كبيرة من الأخشاب ، ثم أَشْعَلَ أسامةُ فيها النارَ . وبعْدَ لحظاتٍ تصاعدَتْ ألسِنَةُ اللهب عاليةً ، وعندئذٍ أحاطَ الإخوةُ النارَ بالأعشابِ البحرية فبدَأَ الدُّخان الكثيفُ يتصاعَدُ فى الجوِّ . وصاح أسامةُ وهو يتَّجِه إلى البحرِ : « لقد سخِرنا منكما أيُّها الرجلان ، هل رأيتُما دُخانَ نارنا ؟ سنَسْخَرُ منكما مَرَّةً أخرى إذا عُدْتُما إلى الجزيرة . »

٤ آذار ١٩٥٧

الفصل الرابع

١ — زائرٌ آخر

قال طريفٌ : « لقد قضينا هنا مُدّةً من الوقتِ ، ولم أعدْ أعرفُ ما إذا كان هـذا اليومُ يومَ الثلاثاء أو يومَ الأربعاء » فقال أُسامةُ : « إن اليومَ يومُ جمعةٍ يا طريفُ ، فقد حسبْتُ الأيامَ هـذا الصباحَ » فتساءلَتْ إلهامُ : « كم مَضَى من الوقتِ مُنْذُ غادرْنا منزلَنا ؟ يخيّلُ إليَّ أنّنا مكثْنا هنا ستّةَ أشهرٍ ، يا تُرَى كيف حالُ والدتِنا ؟ فأجابَ أُسامةُ : « لا بُدَّ أنها قلِقَةٌ علينا لانقطاعِ الرسائلِ عنها ، ولكنّها ستعتقدُ أنّنا بخيرٍ ما دُمْنا مع سميرٍ .. » فقالت أنسامُ : « ولكنَّ الحقيقةَ أنّنا لسْنا بخيرٍ . . . . ! ولسْنا مع سميرٍ . كم أَوَدُّ لو أعرفُ أينَ سميرٌ ؟ وماذا يحدُثُ له ؟ لو أنَّ لدينا زورقاً لأمكنَنا الذهابُ إلى الجزُرِ الأُخرى وبحثْنا عنه » . فقال أُسامةُ : « ليسَ من المُحْتَمَلِ أن نحصُلَ على زورقٍ الآنَ . فهيّا بنا نذهبْ إلى قِمّةِ الصخورِ لنرَى ما حدَثَ للنارِ ؛ فإن دُخانَها ليسَ كثيفاً » .

وذهبَ الإخوةُ إلى قِمّةِ الصخورِ وجلسوا حولَ النارِ يُلْقُون فيها الخشبَ والعُشبَ الجافَّ ، فاندلعَتْ أَلسِنةُ اللهبِ ، وتصاعدَ الدُّخانُ ، وأخذَ طريفٌ المِنظارَ المُعظِّمَ ووضَعَه على عينَيْه ونظرَ إلى البحرِ وهو يقولُ : « إنّنا لا نعرفُ متى يأتي الأصدقاءُ ومتى يأتي الأعداءُ » وفجأةً رأى طريفٌ شيئاً فصاحَ : « إني أرى زورقاً ، انظر يا أُسامةُ من خِلالِ مِنظارِك ؟ » وأخَذَ الشقيقان

يُرَاقِبانِ الزَّوْرقَ وإلهامُ وأَنسامُ تنتظران فى لهفة لأَنهُمَا لا تستطيعان رُؤْيَة الزَّوْرق البعيدِ بأَعْيُنِهما المُجرَّدة . وقال طريفٌ : « أَهُوَ نفسُ الزَّورق الذى جاء فى المرَّةِ السابقةِ ؟ إنَّه يقترِبُ وسنعرِفُ بعدَ قليلٍ إن كان هو الزورق الأولَ أو غيرَه » فقال أُسامةُ : « إنه يظهَرُ على البُعْدِ غيرَ الزَّوْرقِ الأولِ . . . . إنه أَصغرُ من الزَّوْرقِ الأولِ . . . . إنه قادمٌ من اتِّجاه غير الاتِّجاهِ الذى قدِمَ منه الزَّوْرقُ الأولُ . وأَيًّا كان الأمرُ فقد تكونُ هذه خُدْعَةً حتى نَظُنَّ أنهم أصدقاء » فقالت أنسام : « وكيف نعرفُ حَقِيقَتَهم ؟ هل نذهبُ إلى المَخْبَإِ مرَّةً أُخرى ؟ » وأعطى طريفٌ أنسامَ مِنظارَه لِكَىْ تُرَاقِبَ الزَّوْرقَ والتفتَ إلى أُسامةَ وقال : « إنَّ فى الزَّوْرقِ رجلاً واحداً وعندما ينزِلُ لِلْبَحْثِ عنَّا سيُضْطَرُّ إلى تَرْكِ الزَّوْرقِ على الشاطِئِ . فما رأْيُكم فى أنْ نَسْتَوْلِيَ على الزَّوْرَقِ عِندَئِذٍ ؟ » فقال أُسامةُ : « نعم ، لَيْتَنَا نستطيع ذلك ، إنه زَوْرَقٌ بخارىٌّ صغيرٌ ، ولكنه يَكْفِينا . . . » ولكنَّ إلهامَ قالت : « وكيفَ نستطيعُ الاسْتِيلاءَ عليه ؟ إنَّ الرجلَ يستطيعُ أن يَرَانا من غيرِ تعَبٍ ، وعندئِذٍ يأْتِى مُسْرِعًا ويقبِضُ علينا » . فأَخَذَ أُسامةُ مِنظارَه المُعَظِّمَ منها وهو يقولُ لها : « لا تكونِى مُتَشائِمَةً هكذا ؟ » وقال طريفٌ : « دَعُونا نُفَكِّرْ فى الأمرِ مَلِيًّا . . . إنَّ هذا الرجلَ لا يُمْكِنِ أن يكونَ قادِمًا لِإنقاذِنا ، لأنَّ أىَّ شخصٍ يعرفُ أنَّنا هنا لا بُدَّ أنْ يَأْتِىَ فى زَوْرقٍ ومعه عددٌ من الرجال ، فقد يُضْطَرُّون لِلاصْطِدامِ بأعدائنا ؛ ولذلك أُرَجِّحُ أنَّ هذا لم يُرْسَلْ لِإنقاذِنا . . . . » وأَكْمَلَ أسامة الكلامَ فقال : « حقًّا . . إنها قد تكونُ خُدعةً من الأعداء ، ورُبَّما استطاعوا أن يعرفوا

من سَمير أنه لا يُوجَدُ سِوَى صِبْيَة صغار على الجزيرةِ ، ولذلك أرسلوا رجلاً واحداً لِـكَىْ يتظاهرَ بأنه ليسَ من الأعداء فيستطيعَ أَنْ يخدَعنا ويُغرِينا بركوب قاربه على زَعْم أنَّهُ سيُنْقِذُنا ، وعندئذ يأخُذُنا لِنُشارِكَ سميراً فى سجنِه » . فقالت أنسامُ : « إننى لن أذهبَ معه ولن أرْكَبَ زَوْرقه . فـكِّروا فيمَا نفعَلُ الآنَ ؟ » فقال طريفٌ : « لقد فكَّرْتُ فى خُطَّة . وهى خُطَّةٌ غيرُ هيِّنة ولـكنَّها تحتاجُ إلى جُهُودِنا جميعاً » . فظهرَ على وَجْهِ إلهامَ الضِّيقُ والامْتِعاضُ وقالت : « حسناً ، أخبرْنا بِفِكْرتِك بسرعة » فقال طريفٌ : « يجبُ أن نعرفَ أوّلاً المـكانَ الذى سيتركُ زورقَه فيه ، ولا يَتِمُّ ذلك إلاَّ بمُتابعَتِهِ ومُراقبَتِه » فقالت أنسام : « وماذا بعدَ ذلك ؟ » فأجاب طريفٌ : « سأختبىءُ أنا وإلهامُ ، ويتقدَّمُ أسامة مع أنسامَ لِيُقابِلاَ الرجلَ عندَما يَتَوغَّلُ فى الجزيرةِ باحثاً عنا » . فقالت أنسامُ فى فزعٍ : « إننى لا أستطيعُ أن أُقَابِلَه » فقال طريف : « حسناً فليُقَابِلْه أسامةُ وَحْدَه ثم يحْتَالُ على إيقاعِه فى تلك الحفرةِ التى اختبَأْنا فيها ، ويُبْقِيه بها حتى نَسْتَوْلِىَ على القارب » ففكرَ الجميعُ فى الأمرِ . ثم قال أسامةُ : « ولـكنَّك لا تعرفُ كيف تُبْحِرُ بالزَّوْرقِ ، فإذا اضطُرِرنا إلى الفِرارِ مُسْرِعينَ فقد لا أستطيعُ الوصولَ إلى الزَّوْرق فى الوقتِ المُناسبِ ، ثم أُديرُ مُحرِّكَ القارب وأُبحِرُ به قبلَ أن يَلحَقَ بنا الرجلُ ... ولذلك أرَى أن تُقابِلَ أنتَ الرجلَ وتُوقِعَه فى الحُفرةِ وأَسْتَوْلِى أنا على الزَّوْرقِ وأُعِدَّه للانطلاقِ » . فقالت إلهامُ لِطريف : « فَلْنَفْرِضْ أنك لم تستطِعْ أن تُوقِعَ الرَّجلَ في الحُفرةِ وتحْتَفِظَ به سجيناً ، فماذا نفعلُ بالقاربِ ؟ » فقال

طريفٌ : « إذا وجدتُم أنى لم أستطِع التخلُّصَ من الرجلِ فأسرِعُوا بالابتعادِ بالزَّورقِ ، وعندما يحِلُّ الظلامُ يُمكِنُكم أن تأتُوا للبحثِ عنى . . . ولكنْ لا داعِيَ لِلقلَقِ فسأنجحُ فى سَجنِ الرجلِ » وعندئِذ قالت أنسامُ : « سأقومُ بدوْرِى أنا أيضاً ، وسأذهبُ معك لِمُقَابلةِ الرجلِ » وقال أسامةُ : « يجبُ عليكما أن تتظاهرَا بتصديقِ كلِّ ما يقولُه لكُما ، إن الزَّورقَ يقترِبُ . إن فيه رجلاً واحداً كما رأينا وهو بعيدٌ » وقال طريفٌ : « لا ريبَ أنَّ هذا الرجلَ سيتظاهرُ بأنه من مُحِبِّى الطيورِ . وتذكَّرِى يا أنسامُ . . . يجبُ أن تُؤيِّدِى كلَّ ما أقولُه للرجلِ . . . هيَّا اختبِئْ يا أسامةُ مع إلهامَ وسأسِيرُ أنا وأنسامُ إلى الرجُلِ » وقالت إلهامُ : « إنه سيَرسُو بزورقِهِ فى الخليج الصخرىِّ . إنه يعرِفُه جيِّدًا ، إذًا لا بُدَّ أن يكونَ قد ارتادَ هذا المكانَ قبلَ ذلك » . فقال طريفٌ : « نعم . ما مِن أحد يعرفُ هذا الخليجَ جيِّداً هكذا إلا إذا كان قد جاءَ إلى هذه الأماكِن قبلَ ذلك ، ورُبَّما كان أحدَ الرجلَيْنِ اللذيْنِ كانا هنا من قبلُ ، والآنَ أسرعْ يا أسامةُ حتى نستطيعَ الاستِيلاءَ على الزَّورقِ » .

وأقبلتْ كيكى فى هذه اللحظة من إحْدَى جولاتِها حولَ الجزيرةِ فتدخَّلَتْ فى الحديثِ قائلةً : « أينَ الزَّورقُ ؟ اقفِلِ الزَّورقَ . امسح الزَّورقَ » . فقال لها طريفٌ : « إنكِ تستطيعِينَ الاشتراكَ معَنا ، ولكنْ يجبُ أن تقولِي أشياءَ معقولةً » . فأجابَتْه كيكى فى هُدُوءٍ : « ضعِ الزَّورقَ على النار . افتحِ البرادَ » .

٤ مارس ١٩٥٧

٢ — زَوْرَقٌ جديدٌ

أخـذ طريفٌ وأنسامُ يُلَوِّحانِ للرجلِ حتى رآهما فلَوَّح لهما بِيَدِه ، ثم قادَ الزَّوْرقَ بمهارة إلى الخليجِ الصغير . وكان أُسامةُ وإلهامُ مُخْتَفِيَيْنِ خلفَ بعضِ الصخورِ الـكبيرةِ فلم يستطيعا أن يَرَيا ما يَفعَلهُ الرجلُ . وكان قد غادَرَ الزَّوْرَقَ وأخذَ يتسلّقُ الصخورَ إلى المـكانِ الذى يقِفُ فيه طريفٌ وأنسامُ وقال طريفٌ لِأنسامَ : « هذا هو الرجلُ قادماً » . ولما اقتربَ الرجلُ قال لهما : « لقـد دُهِشْتُ كثيراً عِنْدما علِمْتُ بوجودِ أُناسٍ على الجزيرةِ » فسأله طريفٌ على الفوْرِ : « ومَنِ الذى أَخْبَرَكَ ؟ » فقال الرجلُ : « لم يُخبِرْنى أحدٌ ولـكننى رأيتُ دُخانَ ناركم . وماذا تفعلون هنا ؟ أَهنا مُعَسْـكرٌ ؟ » فقال طريفٌ : « رُبّما . ولـكنْ لماذا أقبَلْتَ أنتَ إلى هنا ؟ » فقال الرجلُ : « إننى من هُواةِ الطيورِ » فقال طريفٌ : « هل تعرفُ الـكثيرَ عن الطيورِ ؟ » فقال الرجلُ : « إننى لا أعرفُ كثيراً عن الطيورِ البحريةِ ولذلك جِئْتُ إلى هـذا المـكانِ لِيَتَسَنَّى لى دراسةُ بعضِ هذه الطيورِ » . فقال طريفٌ فى نفسِه : « آه ! إنه يقولُ ذلك لِأنَّه يَخشَى أن أَسأَلَه بعضَ الأسئلةِ عن الطيورِ البحرية التى تُوجَدُ هنا » ثم قال له بصوْتٍ مُرتفعٍ : « هل تُريدُ أن ترَى كثيراً من الطيورِ البحرية ؟ إن كنتَ تُريدُ فتَعالَ معنا » . وسار الثلاثةُ فى الطريقِ إلى الحُفرةِ . وقال الرجلُ يسألُ أنسامَ : « ما اسمُك ؟ » فقالت : أنسامُ ، وهذا هو أخى طريفٌ وأنتَ ما اسمُك ؟ » فقال الرجلُ : « إنَّ اسمى خفاجةُ » فضحِكَتْ أنسامُ فى نفسِها وقالتْ : « خواجة » فقال الرجلُ : « لا . لا . خفاجة » وابتسم

لها ثم قال : « إننى أريدُ أن أقابلَ المُشرِفَ عليكم أو مَنْ يُعْنَى بأمرِكم فى هذا المكانِ النَّائِى ،ولكنْ أينَ قاربُكم ؟» فقال طريفٌ : « لقد حطمَتْه العاصفةُ » فقال خفاجةُ : « هذا شىءٌ مُؤسِفٌ . وكيف تعودُون إذًا ؟ » وفى ذلك الوقت كان الثلاثةُ قد اقترَبُوا من الُحفرةِ المُختَفِيةِ تحتَ الأعشابِ والنباتاتِ وبدأتْ أنسامُ تَخْشَى ألاَّ ينجحَ طريفٌ فى إيقاعِ هَذا الرجلِ « خواجة » أو أيًّا كان اسمه — فى الُحفرةِ ـ أو أنْ يكونَ الرجلُ معه مُسدَّس . وَهمَسَ طريفٌ لأَنسامَ : « ابتَعِدِى قليلاً » وتأخَّرَتْ أنسامُ عنهما قليلاً وقلبُها يدُقُّ دقًّا عنيفاً مُتتَابِعاً . وازْدادَ اقترابُ طريفٍ والرجلِ من حافّةِ الُحفرةِ حيثُ كانتْ هناك العصا المَغروسةُ التى تُحَدِّدُ مكانَها . ولدَهْشَةِ الرجلِ العظيمةِ مدَّ طريفٌ رجْلَه أمامَه ثم دَفَعَه دفعةً شديدةً فسقَطَ على الأرضِ . . . على حافّةِ الُحفرةِ ، وقبْلَ أن يستطيعَ النهوضَ عاجَلَه طريفٌ بدَفْعَةٍ أخرى أشدَّ من الأُولى فهوَى فى الُحفرةِ . وأزاحَ طريفٌ النباتاتِ التى تُغطِّى الُحفرةَ وأمسكَ بيَدِه عصاً غليظةً ونظر ... فرأى خفاجة جالساً يئِنُّ . ونظرَ خفاجَةُ إلى أعْلَى وصاحَ : « أيُّها الولدُ الشِّريرُ ، لماذا فعَلْتَ ذلك ؟ »فقال طريف : « آسِف . ولكنْ لم يَكنْ بُدٌّ من ذلك . . . فإمَّا أنْ تقتَنِصَنا وإمَّا أنْ نَقتَنِصَك نحن ، ولا داعِىَ لِلتظاهرِ بالعطف والتَّوَدُّدِ ؛ فإنَّنا نعرِفُ العصابةَ التى تنتَمى إليها » فصاحَ خفاجةُ : « عن أىِّ عصابة تَتحدَّثُ يافَتى ؟ » ووقف فبرَزَ رأسُه من الُحفرةِ فرفع طريف عصاه الغليظةَ وصاح مُتوَعِّدًا : « ارجعْ إنَّك سَجيننا . لقد سجَنتُم سميرًا . . . وقد سجَنَّاك كما سجَنتُموه ، وإذا

ثم دفعه دفعة شديدة فسقط على الأرض

حاولْتَ أن تَخْرُجَ ضربتُكَ على رأسِك بهذه العصا الغليظةِ ..... وإذا لم تُصَدِّقْنِى فحاوِلْ . وتراجعَ خفاجةُ وقَبَعَ فى قعرِ الحُفرةِ ثم صاح .. إننى لا أفهم شيئاً مِمَّا حدثَ ، لقد جئتُ إلى هذه الجزيرةِ لِكَىْ أمْضِىَ بضعةَ أيامٍ . فهلْ فى هذا جريمةٌ ؟ ولماذا جئْتَ بى إلى هنا وأوقعْتنى فى هذه الحُفرةِ ، ثم تُهَدِّدُنِى بضَرْبى بهذه العصا ؟ » فقال طريفٌ : « لم يَكُنْ أمامَنا سِوَى هذا الحَلِّ . فقد تحطَّمَ قاربنا وخطفْتُم سميراً ، وكان لا بُدَّ لنا أن نحصُلَ على زَوْرقٍ بأىِّ وسيلة لأننا لا نستطيعُ البقاءَ هنا بقيَّةَ عُمْرِنا » فصاحَ الرجلُ : « هل تريدون أَخْذَ زَوْرقِى ؟ إننى لم أسمعْ بمثلِ هذه الوقاحةِ قبلَ الآن . انتظرْ حتى أعثرَ على

منْ يُشرِفُ عليكم وسأَجْعَلُه يضربُكَ بهذه العصا التى فى يدِكَ ضرباً مُبَرِّحاً يوجِعُكَ و يُؤْذِيكَ .

لم يلتفِتْ طَرِيف إلى خفاجةَ وقال لِأَنسامَ : « انظُرِى . هل تَستَطِيعِينَ رُؤْيةَ أسامةَ أو إلهامَ » ، فوقفِتْ أنسامُ و نظرَتْ ناحيةَ الخليجِ فرأَتْ إلهامَ تَنْتَظِرُهما فلوَّحَتْ لهما أنسامُ بِيَدِها وصاحَتْ : « تَمَّ كلُّ شىء ، لقد أوقَعْناه فى الحُفرةِ » واختَفَتْ إلهامُ لحظةً ثم عادَتْ تَعْدُو ومَعَها أُسامةُ ، فلما وصلا قال طريفٌ لِأُسامةَ : « دعْنِي أُعرِّفك بالأستاذِ « خواجة » فقال أُسامةُ : « ماذا ؟ هل هذا اسمُه ؟ » وصاح الرجلُ غاضباً : « إن اسمى خفـاجةُ ، وليس خواجة أيُّها الأشرارُ . أَخرجُونى من هنا » وأَخرجَ الرجلُ رأْسَه من الحُفرةِ ، فقال طريف : « حذار .

حذار ! وإلا ضربتك على رأسك بهذه العصا

وإلا ضربتُك على رأسِك بهذه العصا . فتراجعَ الرجلُ ، وقبعَ وفى قعرِ الحفرةِ كما كان ، وهو يَصْخَبُ ويَلْعَنُ . وقالت إلهامُ : « ماذا نفعلُ الآنَ ؟ » وقالت أنسامُ : « هل تظنُّون أنه يستطيعُ أن يسمعَ ما نقولُ ؟ » فقال أسامةُ : « إنه لا يسمعُ إذا تكلمنا بصوت منخفضٍ ، وإننى أرى أن نُعجِّلَ بتركِ الجزيرةِ فى الزَّوْرقِ ولكنَّ المشكلة هى . . . إلى أين نتجهُ ؟ إننى أخْشَى أن يَقلقَ أصحابُ هذا الرجلِ خفاجة لغيابه فيأتُوا لاستطلاعِ الأمرِ فتضيعَ فرصةُ الهَرَبِ » فقال طريفٌ : « لقد فكَّرْتُ فى ذلك أيضاً ، أنعودُ أدراجَنا فى هذا الزَّوْرقِ أم نقصدُ إلى إحْدَى الجُزُرِ ، فقد نعثُرُ على بعض الصَّيادين ونطلبُ منه المُساعدةَ ، أم نُحاولُ البحثَ عن سميرٍ ؟ » واستقرَّ رأىُ الجميعِ على ضرورةِ البحثِ عن سميرٍ أوَّلاً . وقال أسامةُ : « سأقومُ بنقلِ حاجاتِنا إلى الزَّورقِ مع إلهامَ وأنسامَ ، ويَبْقَى طريف لِحراسةِ خفاجةَ حتى نَنْتهِىَ من عملِنا ، ثُمَّ نناديه فيُسْرِعَ إلينا . وعِنْدَما يدرِكُ خفاجةُ أننا لا نَحْرُسُ الحُفرةَ نكون قد ابتعدْنا عن الجزيرةِ ، فلا يستطيعُ اللَّحاقَ بنا . » وقال طريفٌ : « إننى أقترح ألاَّ نبدأَ رِحلتَنا إلا عِنْدَ الفجرِ لِكَىْ نضمنَ أن يكونَ خفاجةُ نائماً فلا يَعترِضَ سبيلَنا ؛ ولِيُساعِدَنا ضوْءُ الفجرِ على الرُّؤْيةِ » .

٣ — الأعداء

٤ مارس ١٩٥٢

أخَذَ أسامةُ وأختاه ينقلون حقائبَهم وطعامَهم وحاجاتِهم إلى الزَّورَق وكان طريفٌ يقومُ بحِراسةِ الحُفرةِ التى بها ذلك الرجلُ خفاجةُ ، فلما انتَهى أسامةُ وأختاه من عملِهم كان الظلامُ قد لفَّ الجزيرةَ كلَّها ، وجلسَ

الإخوةُ الأربعةُ بجانبِ الحفرةِ . وقال أسامةُ في صوْتٍ هامسٍ لكيْلا يسمعَه خفاجة : « يجبُ أن نقومَ بحراسةِ الحفرةِ طولَ الليلِ حتى لا يتمكّنَ خفاجةُ من الفرارِ » فقال طريفٌ : « نعمْ ، فإننا لا نستطيعُ أنْ نتهاونَ في الوقتِ الذي تمَّ فيه إعدادُ كلِّ شيءٍ لهربِنا نحن ، وسنتناوبُ الحراسةَ أنا وأنت لأنَّ إلهامَ وأنسامَ لن يضربا خفاجةَ بشدَّةٍ على رأسِه إذا حاولَ الهربَ » فقالت إلهامُ بحماسٍ : « بل سأضرِبُه بشدَّة » .

وبدأتِ النجومُ تتلألأُ في صفحةِ السماء ، واستلقى الأطفالُ على الحشائشِ بجانبِ الحفرةِ يتكلّمون في صوْتٍ خافت ، ولم يصدُرْ أيُّ صوْتٍ من الرجلِ خفاجةَ المسجونِ في الحفرةِ ، ولعلَّه كان نائماً . وخرجتْ فِئرانُ أسامةَ تتشمَّمُ الهواءَ بأنوفِها الدقيقةِ ، ورأتْها كيكى فأخذتْ تحملقُ فيها ، ثم أخذتْ تتثاءبُ وتعطِسُ بشدَّةٍ لكَىْ تخيفَها ، ثم بدأتْ تقلِّدُ صوْتَ رجلٍ يسعُلُ ، فصاحَ بها طريفٌ : « كفى يا كيكى . إذا كنتِ تريدين التدرُّبَ على هذه الأصواتِ المزعجةِ فابتعدِى عنا ولا تعكِّرِى صفْوَنا بهذا السُّعالِ » فصاحتْ كيكى : « استدْعِ الطبيبَ . استدْعِ الطبيبَ . » وما إنِ انتهتْ كيكى من ثرثرتِها حتى سمعَ الأطفالُ صوْتاً خافتاً آتياً من جهةِ البحرِ . فقال طريفٌ : « صوْتُ زورقٍ بخاريٍّ » فقال أسامةُ : « هل جاءوا يبحثون عن زميلِهم بهذه السرعةِ ؟ » . إن هذا يقلِبُ خططَنا رأساً على عقبٍ » وأنصتَ الأطفالُ مرَّةً أخرى ولم يعدْ لديهم شكٌّ في أنه صوْتُ زورق . وهمسَ أسامةُ : « الحلُّ الوحيدُ هو أن نُسرعَ إلى الزورقِ ونبتعدَ به قبلَ أن يراه الأعداءُ في الخليجِ » .

وفى سكون نهضَ الإخوةُ وأسرَعُوا يعْدُون نحوَ الخليجِ وهم يتعثَّرُون بسببِ الظلامِ، وظلَّ الأرْبعَةُ يجرُون حتى وصلُوا إلى الزَّوْرق، فقفزُوا إليه. وَقالَ أسامةُ لطريف: «حُلَّ الحبْلِ الذى يَرْبطُ الزَّورقَ». فقام طريفٌ بحَلِّ الحبل وأدارَ أسامةُ مُحرِّكَ الزَّورقِ، وخرجَ ببُطءٍ من الخليجِ، ثم أطلقه سريعاً فى عرضِ البحرِ. فلما ابتعَدُوا مسافةً كافيةً قال أسامةُ: «سأوقفُ الزَّوْرقَ الآنَ حتى نرَى اتجاهَ الزَّوْرقِ الآخرِ، وأنا أعتقِدُ أنه سيدخُلُ الخليجَ». ووقف الزَّورق فظهرَ صوْتُ الزَّوْرقِ الآخرِ واضحاً وأكثرَ قرْباً. وأخذَ الأطفالُ يحَملِقُون مُحاوِلينَ اختراقَ الظلامِ بنظرَاتِهم حتى استطاعُوا أن يتبينَّوا شبحَ الزَّوْرق الكبيرِ الآخرِ وهو يتَّجهُ إلى الخليجِ، ثم توقَّف الزَّوْرقُ الكبيرُ وانقطعَ صَوْتُ مُحرِّكهِ. وقالت إلهامُ: «إن الرجلَ خفاجة سيكونُ سعيدًا لإنقاذهِ إنقاذًا عاجلاً». فقال أسامةُ: «لاشكَّ أنه قد خرج من الحُفرةِ عندما شعرَ أننا لسْنَا هناك، ولا بُدَّ أنَّ زُملاءَه سيغضَبُون جدًّا عندما يعرفون أننا قد استوْلَيْنَا على الزَّوْرقِ» وقالت إلهامُ: «إننا لا نستطيعُ أن نُبحرَ الآنَ بالزَّوْرقِ خوفاً من الاصطدامِ بالصخورِ أو بعضِ الجُزُرِ التى لا نستطيعُ أن نتبيَّنَها فى الظلامِ، فماذا نفعلُ الآنَ؟»

ووثبَ الجميعُ من الفرغ عندما سمِعُوا صوْتًا ينْبَعِثُ من ناحيةِ حافةِ الزَّوْرقِ يقولُ: «استَدْعِ الطبيبَ» وقال طريف مَغيظًا: «إنها هذه الشقَّية كيكى. إنَّها تظنُّ أنها تزوِّدُنا بالنصائح». وقال أسامة: «سنبْقى هنا حتى تلوحَ أولى تباشيرِ الفجْرِ، ثم ننْطلقُ بالزَّوْرقِ، وأرجو ألاَّ يسمعَ الرجالُ الذين

على الجزيرةِ صوتَ المُحرِّكِ فيُسرِعُوا لمطاردَتِنا » . فقال طريفٌ : « إننا نكُونُ قد سبَقْناهم بمسافة كبيرة . وما دُمْنا سنبْقَى هنا بعضَ الوقتِ فيحسُنُ بنا أن ننامَ قليلا » . فقال أسامةُ : « نعم . ولكنْ يَجِبُ أن أُلقِىَ المِرساةَ حتى لا تجرُفَنا الأمواجُ وتُلْقِينا على الصُّخورِ » . وأخذَتْ إلهامُ وأنسامُ تعِدَّانِ مكانًا لِلنومِ ، وشُغِلَ أسامةُ بإنزالِ المِرساةِ ، واستَلْقَى الإخوة فى الظلامِ .

وقالت أنسامُ : « إنى مسرورةٌ لأننى لم أُضْطَرَّ لِضَرْبِ ذلك الرجلِ خفاجةَ على رأسِه بالعصا ، ولو كُنْتُ اضطُرِرْتُ إلى ذلك لظَلَلْتُ أَحْلُمُ به مُدَّةً طويلةً » .

وقالت إلهامُ : « إننى لا أَشعُرُ برغبة فى النومِ » . وبدأت كيكى تُثَرْثِرُ وتُصْدِرُ عدَّةَ أصوات مُزْعِجَة ، وكأنَّما لم يُعْجِبْها السُّكونُ السائدُ . فصاح بها طريفٌ : « كفى أيَّتُها الببْغاء المُزعِجةُ ، اسكتى » فصاحت كيكى مُقلِّدَة : « اسكتى » ثم انطلَقَتْ تُقهقِهُ . فقال طريفٌ غاضبًا : « ليسَ من الأدَبِ أن تفعَلى ذلك » .

ونهضَ طريفٌ لِيَضْرِبَها على منقارِها ، ولكن كيكى أسرعَتْ تَضَعُ رَأْسَها تَحْتَ جناحِها ، فلم يستطعْ طريفٌ أن يَضرِبَها ؛ فقال : « ياللكِ من ببْغاء ماكِرَة ! » وسمِعَها تقولُ مِنْ تَحْتِ جناحِها : « اسكتى » ثم تنطلقُ ضاحكةً .

وفى اللحظة التى كادَتْ فيها أنسامُ أن تنامَ — هبَّ الباقون جالسين . فقالت : « ماذا حدثَ ؟ وسمعَ الجميعُ صوتَ مُحرِّكِ القارب الآخر . فقال طريفٌ : « لقد عثَرُوا على خفاجة ، وها هم أولاء يُغادِرُون الجزيرةَ . . انظرُوا ، إنهم يُبْحِرُونَ وأضواءُ الزَّوْرقِ مُضاءَةٌ » . وقال أسامةُ فى عجَل : « لا شكَّ أنهم سيتوجهونَ إلى مقرهم الرئيسى ونستطيعُ أن نتْبعهم . ارفع المرساةَ يا طريفُ

إنهم لن يسمَعُوا صوْتَ زَوْرقِنا لِأنَّ زَوْرَقَهم يُحْدِثُ صوْتًا عاليًا . هيَّا بنا . . .
فسيقُودوننا إلى مكانٍ سمير . وكان الزَّوْرَقُ الكبيرُ قد ابتعَدَ عن الجزيرةِ
وتوجَّه إلى عرضِ البحرِ . ولم تَمْضِ لَحَظاتٌ حتى كان زَورقُ الإخوةِ الأربعةِ
يَتْبعُ الزَّوْرق الآخرَ وأدركَ الإخوةُ أنَّ مَنْ فى الزَّوْرقِ الكبيرِ لن يَسْمَعُوا
صَوْتَ زَوْرقِهم لِأنهم هم أنفسُهم لم يكونوا يسمعون صوتَ الزَّوْرقِ الأمامىِّ .
وظلَّ الزَّوْرقُ الأمامىُّ مُنْطلِقاً انطلاقاً سريعاً ، والزَّورقُ الصغيرُ وعليه الإخْوةُ
الأربعةُ يَتْبَعه فى حَذَر ، وتمكَّنَ الإخوةُ مِنْ تَتَبُّع الزَّورقِ الكبيرِ من غيرِ عناءٍ
لِأنَّ أنوارَه كانت مُضاءةً . وقالت أُنسامُ : « لقد أصبحْنا فى قلْبِ المُغامرةِ . . »

٤ — البُحَيْرَةُ السِّرِّيَّة

انقضَتْ فترةٌ طَويلةٌ والزَّورقانِ مُنطلِقانِ كلٌّ منهما فى أثَرِ الآخرِ . وقالت
أُنسامُ : « إنى أرجو أن نَجِدَ سميراً . » وقال طريفٌ لِإلهامَ وأُنسامَ : « يحسُنُ
بكما أنْ تنامَا قليلا لِتَستريحَا » . وعَمِلَتِ الأُختانِ بنصيحتِه ، وسرْعانَ ما أسْلمَتَا
أنفسَهما لنومٍ عميق . . . .

وسارَ الزَّوْرقُ يشُقُّ بالإخوةِ عُبابَ الماء . ثم قال أُسامةُ : « هل ترَى ذلك
الضَّوْءَ الذى يُومِضُ هناكَ ؟ إن الزَّورقَ يتَّجه إليه ، وأرجُو أن تنتَهىَ الرِّحلةُ
قبل أن يَبْزُغَ الفجْرُ وتَسْهُلَ رُؤْيتُنا » . فردَّ عليه طريفٌ : « قد يكونُ هذا الضَّوْء
إشارةً لإرشاد الزوارق أو الطائراتِ . . . انظرْ ! هذا هو القمرُ يبْزُغُ من
خلْف السُّحب . ولكنه ليْسَ لامعاً » فقال أُسامةُ : « إننا إذا ظَلَلْنا نَتْبعُ هذا
الزورقَ فسنُلْقِى بأنفسِنا فى عرينِ الأسدِ ، ويحسُنُ بنا أن نتَّجه إلى تلك

الجزيرةِ التى أراها على مَبْعَدَة من الجزيرةِ التى يقصِدُ إليها الزَّورقُ ، ونستطيعُ أن نجِدَ مَرْسًى لقارِبنا مُسْتَعِينِينَ بضَوْءِ القمرِ » . فوافقه طريفٌ على ذلك . واتَّجَه زورقُهم إلى الجزيرةِ الأُخرى ، ولم يَعُودَا يتبعانِ الزورقَ الآخرَ الذى اختَفَى عن الأنظارِ . وعندما وصلا إلى الجزيرةِ كانا قد تعوَّدَا الرؤْيةَ فى ضوْءِ القمرِ ، واستطاعا أن يَرَيَا كلَّ شىْءٍ رُؤْيَةً تكادُ تكونُ واضحةً . وقال طريفٌ : « إن الشاطِئَ رمليٌّ وليسَ به صخورٌ ، ونستطيعُ أن نَرْسُوَ عليه » . واندفع الزورقُ حتى انغرسَتْ مُقَدِّمَتُه فى الرمالِ الناعمةِ ، وإذ ذاك استيقَظَتْ إلهامُ وأنسامُ ، وقفز أسامةُ إلى البرِّ ، وحاول جَذْبُ الزَّورقِ ؛ ولكنه قال : « إننى لا أستطيعُ أنْ أحرِّكَهُ ، وَيَكفِى أن نُثبِّتَ المِرساةَ فى الرمالِ » . وقالت إلهامُ : « هيَّا بنا نبحَثْ عن مكانٍ نَقْضِى فيه الليلَ » .

وسارَ الجميعُ إلى داخلِ الجزيرةِ وطريفٌ وأُسامةُ يغالبانِ التَّعبِ والنوم . وقال طريفٌ : « إننَّا هنا فى أمان إلى الصباح على الأقلِّ ، فلا يَعرفُ أحدٌ بوجودِنا هنا » . وَوَصلوا إلى صخرة غيرِ مُرْتَفِعة ، فقالت أنسامُ لأُسامةَ : « يَبْدُو أنَّ هناك كهفاً صغيراً » . وأضاء أسامةُ بطاريتَه فوجدَ كهفاً صغيراً ، فدلَفَ الجميعُ إليه ، ولم يهتَمُّوا برائحةِ أعشابِ البحرِ التى كانت مُنتشِرةً فيه .

وما إن استَلْقَوْا على الأرض حتى استَغْرَقَ طريفٌ وأسامةُ فى نوم عميق ، ولم يَمْضِ إلا قليلٌ حتى حذَتْ أُختاهُما حَذْوَهما . وساد السكونُ المكانَ فيما عدا شخير طريف لِأنَّه كان نائماً على ظهرِه . وسارت كيكى إليه ووقفَتْ تتفحَّصُ وجْهَه فى الظلام ؛ لِتَعرِفَ السببَ الذى جعلَ سيِّدَها المحبوبَ يُحْدِثُ

هذه الأصواتَ الغريبةَ وهو نائمٌ، فلمَّا لم تفْلحْ قرَّرتْ أن الأمرَ غيرُ ذِى أهمية وجلست على بطْنه ونامتْ.

ولما أصبحَ الصباحُ استيقظَ أسامةُ، ثم أيقظَ إخوتَه، وأسْرعَ الجميعُ إلى الماء يستحمون. ثم قال طريفٌ: «انظروا. هذه جزيرةُ الأعداء تبْدُو عندَ الأُفقِ. يا ترَى ! هل سميرٌ هناك. . . ؟» فقال أسامةُ: «بعدَ أن نتناولَ إفطارَنا نصعَدُ إلى أعلى مكان فى الجزيرةِ ونُلقِى نظرةً على ما حوْلَنا، والآن. . . . فلنُحْضرْ شيئًا من الطعامِ الذى فى الزّورقِ.» وصعِدَ الأطفالُ إلى الزّورق لإحضارِ الطعامِ؛ وبيْنما كانتْ أنسامُ تبْحثُ عن بعضِ العُلبِ رأتْ شيئًا جعَلَها تصيحُ: «انظروا. أهذا جهازُ اللاسلكى، أم جهازُ إرسال واستقبال، أم جهازُ استقبال فقط؟» فقال طريفٌ: «لا أدْرى! إنه لا يُشْبِهُ جهازَ سميرٍ فى شىْء.» وبعدَ ذلك جلسَ الإخوةُ يتناوَلُون طعامَ الإفطارِ. فلما انتهَوْا منه، تسلقُّوا جميعًا الصخرةَ غيرَ المرتفعة، فوجدوا الأرضَ خلفَها مُنْبسطةً، ورأَوْا فى الطرَفِ الأقصَى من الجزيرةِ تلاًّ مُرتفعًا، فاتجهوا نحْوَه، فلما وصلوا إليه أخذُوا يتسلقُّون حتى بلَغُوا قمّتَه فوقفوا مذْهُوشينَ.

فقد رأوْا فى الناحية الأُخرى بُحَيْرةً زرقاءَ رائعةَ الجمالِ، ذاتَ صفحة ساكنة لامعة كأنها مرآةٌ، وكانت البحيرةُ تقعُ بين جزيرتيْن، امتدّت الصخورُ منهما فأحاطتْ بالبُحيرةِ من جميع الجهاتِ. ووقف الإخوةُ يتأمّلُون جمالَ البُحَيْرةِ الهادئة؛ وعندئذ سمعوا صوْتَ أزيزِ طائرة تقترِبُ، فلما نظرُوا إلى السماء رأوْا طائرةً تتّجِهُ نحْوَهم، فأسرعوا ينْبطِحُون على الأرض

حتى لا يراهم مَنْ فى الطائرة ، ودارتِ الطائرةُ فوقَ البُحَيْرة ، ثم سقطَ منها شىءٌ انفتحَ ، فإذا هو مِظَلَّةٌ قد تعلّقَ بها طَرْدٌ ضخمٌ ، وأخذَتِ المظلّةُ تهبطُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا والإخوةُ يُحَملقُونَ فيها بدَهْشة ؛ فلما ازداد هبوطُها تبيَّنَ الأطفالُ أن الطّرْدَ المُعَلّقَ فيها مَلفُوفٌ فى مادّة لامعة لا ينفُذُ منها الماءُ ، ووصلَ الطردُ إلى البُحَيْرة فاضطربَتْ صفحةُ الماء ، وانتشرَتِ المظلّةُ على السطح بُرْهة ثم ما لَبِثَتْ أن غاصَتْ فى الماءِ وقال أسامةُ : « انظروا ! إن الطائرةَ قادمةٌ ، ويُخَيَّلُ إلىَّ أنها ستُلْقِى مِظَلّةً ثانيةً » . وأخذ الجميعُ ينظُرون إلى الطائرةِ وهى تُلْقِى مظلة ثانيةً فى نهايتِها طَرْدٌ ضخمٌ ، وحدثَ مثلُ الذى حدثَ من قبلُ ، واختفى الطّرْدُ مع المظلّة فى البُحَيْرةِ . ومرّةً ثالثةً ألقتِ الطّائرةُ مِظَلّةً ثالثةً ، ثم دارَتْ فوقَ البُحَيْرةِ دَوْرَةً ، وانطلقَتْ بعيدًا. وقال طريفٌ : « ما معنى هذا ؟ وماذا تحْوى هذه الطُّرودُ الضّخْمةُ ؟ » . وقالت إلهامُ : « ولماذا يُلقُون بهذه الأشياء فى البُحَيْرَةِ ؟ وإذا كانوا يُرِيدُون التّخلُّصَ منها فإن هذه طريقةٌ غريبةٌ للتّخلُّصِ من أىّ شىء . . . » . وقالت أنسامُ : « تعالَوْا نأْخُذْ الزّورقَ إلى البُحيرةِ فربّما استطعْنا أن نرَى ما تحْتَ الماءِ ؟ » . فقال لها طريفٌ : « وكيف نُدْخِلُ الزّورقَ فى البُحَيْرة أيّتُها البلهاءُ وهى محوطَةٌ بالصخورِ من جميع الجهات ؟ » . فقال أسامةُ : « ولماذا لا نهْبطُ فى التّلّ ونسبَحُ فى مياه البُحَيْرةِ ثم نغُوصُ فيها ؛ فقد نستطيعُ أن نرَى شيئًا » . فقالت إلهامُ : « لِنَذْهبِ الآنَ فإننى مشوقةٌ إلى معرفة سر ماحدثَ » .

وأخذ الإخوةُ الأربعةُ يهبطون فى التّلّ حتى بلَغُوا حافّةَ البُحيرةِ ، وألْقَوْا بأنفسِهم فى الماءِ ، فلما ابتعَدُوا مسافةً كافيةً قال طريفٌ : « سأغوص أنا أوّلًا » . وغاصَ طريفٌ فى الماءِ . ترَى ماذا ! يَجدُ ؟ . . .

٥ — الاستكشافُ العجيبُ

كانت البحيرةُ عميقةً ، فلم يستطعْ طريفٌ أن يَصِلَ إلى قاعِها ؛ لِأَنَّ نَفَسَه ضاقَ عن ذلك ، فعادَ إلى سطحِ الماءِ تَعِبًا ، مُتَلاحِقَ الأنْفاسِ ، وقال : « لقدِ استطعْتُ أن أَرَى كُومةً كبيرةً من هذه الطرودِ اللامعةِ ، ولكنى لم أَستطعِ الوصولَ إليها » . فقالت إلهامُ : « إننا نُرِيدُ أن نعرِفَ ما تَحْوِيهِ هذه الطرودُ ، ألا تستطيعُ تمزيقَ الغِلافِ الذى لا ينفُذُ منه الماءُ ؟ » . فقال أُسامةُ : « أَظنُّ أن ذلك سيكونُ سهلاً ، فلا بُدَّ أنه غِلافٌ متِينٌ ، ولكنى سأُحاوِلُ أن أصلَ إلى الطرودِ وأتحسَّسُها فرُبَّما استطعْتُ أن أعرِفَ ما بداخِلِها . » فقالت أنسامُ : « كُنْ حَذِرًا ، فإنّنا لا نعرِفُ ماذا بداخلِ تلك الطرودِ » . فابتسمَ أُسامةُ وقال : « ليس من المُحْتَمَلِ أن يَكُونَ بها شىءٌ يأْكُلُنى » . وغاصَ أُسامةُ تحتَ الماءِ ، واندَفَعَ مُسْرِعًا نَحْوَ القاعِ حتى وصل إلى الطرودِ اللامعةِ . فمدَّ يَدَه يتحسَّسُها فوجَدَ بها أَجسامًا صُلْبةً ، ولما أحس أن نَفَسَه يَضيقُ صَعِدَ إلى سَطْحِ الماءِ . وقال لإِخْوَتِهِ : « لقد مَسَّتْ يَدِى شيئًا صُلْبًا ولم يَكُنْ من المُمْكِنِ أَن أعرِفَ كُنْهَه » . فقال طريفٌ : « يظهَرُ أننا لا نستطيعُ معرفةَ سرِّ هذه الطرود » . فقالت إلهامُ : « إننى لا أُحِبُّ أن أعودَ من غيرِ أَن نعرِفَ الحقيقةَ » . فقال لها أُسامةُ : « إذًا ، لماذا لا تغُوصِينَ بنفْسِك ؟ » . فقالت إلهامُ : « إن نَفَسِى قصيرٌ لا يساعدُنى على الغَوْصِ » . وقالت أنسامُ : « سأعودُ إلى الشاطِئِ ، وأَسْتَلْقِى هناك لآخُذَ حمَّامَ شَمْسٍ » .

وبَدَأَتْ أنسامُ تتجِهُ إلى الشاطئِ ؛ وعندَئذ رأت مجموعةً من السمك

الصغير يُوَلّى هاربًا منها ، فغاصت لترَى كيف يعُومُ السمكُ تحْت الماءِ .
وعندما همّتْ بالعودة إلى سطح الماءِ لمَحَتْ شيئًا . . . فقد كان هُناكَ حاجزٌ
صخرىٌّ يمتدُّ تحتَ الماءِ فى هذه المنطقة فيجعلها ضَحْلةً قليلةَ الغوْرِ ، ونظرَتْ
أنسامُ لتتَحقّقَ مما رأتْه على الصخور تَحْتَ الماءِ ، ولكنّ نفَسَها ضاق فاضْطرّتْ
أن تَطْفُوَ على سطح الماءِ ، وبَعْدَ أن مَلأَتْ رِئتَيْها بالهواءِ غاصتْ مرّةً أُخْرَى ،
فوجدَتْ أن أحَـدَ الطرود التى تُسْقطها الطائرةُ قد اصطدَم بالحاجزِ
الصخرىِّ تحْتَ الماءِ بدلاً من أنْ يُواصلَ هبوطَه إلى قاع البُحيرةِ ، وانشقَّ
الطردُ . . ولكنّها لم تستَطعْ أن تتبيّنَ مُحتوياته التى تناثرَتْ على الحاجز
الصخرىِّ ؟ وصَعدَت أنسامُ إلى سَطْح الماءِ ونادَتْ : « أسامة ! طريف ! لقد
وجدْتُ طرْدًا مفتوحًا تحتَ الماءِ . » وأسرع الصبْيانِ مع إلهامَ إلى حيثُ
كانت أنسامُ ، وغاصُوا جميعًا تحْتَ الماء ، واستطاعَ أسامةُ وطريفٌ أن يتحققَا
من مُحْتَويات الطردِ الكبيرِ المشقوقِ . وعندما صعدُوا إلى سطح الماءِ قالا
فى وقت واحد وهما فى دَهشة : « بنادق ! إنها بنادق .. عشراتٌ من البنادق » .
وصَعِدَ الجميعُ إلى الصخرةِ التى سبقَتْهم إليها أنسامُ ، وقال طريفٌ : « مَنْ كان
يظنُّ أن هذه الطرودَ بها بنادقُ ؟ ولماذا يتخلّصُون منها بهذه الطريقة ؟ »
فقال أسامة : « إنهم لا يُريدُون التّخلّص منها بدليلِ أنهم يضَعُونها فى طرود
لا ينفُذُ منها الماءُ ، ولكنهم يُخبِّئُونها هنا » فقالت إلهامُ : « ولماذا يُخبِّئُونهافى هذا
المكانِ الغريبِ ؟ » فقال أسامةُ : « رُبّما كانوا من مُهرِّبِى السلاحِ ، ويأتُون
بهذه البنادق من مكانٍ ما ، استعدادًا لثورة ستنشبُ فى مكانٍ ما من العالَمِ » .

وغاصوا جميعاً تحت الماء

فقالت أنسام : « لابُدَّ أن سميراً قد فَطِنَ إلى ذلك ، فلما وجدُوه يَتَتَبَّعُهم أسَرُوه حتى لا يَفضَحَ أعمالهم » . وقال طريفٌ فى دهشة : « ولكن كيف يستخرجُون هذه البنادقَ بعدَ ذلك من تحت الماء ؟ إن البُحيرةَ تلفُّها الصخور من جميع الجهات » . فقال أسامةُ : « المُهِمُّ هو أننا عرَفْنا الشَّىْءَ الغريبَ الذى تُلْقيه هذه الطائرةُ ، ولا رَيْبَ أن هذه البحيرةَ مملوءَةٌ بالأسلحةِ وهى مَخْبأٌ رائع ، فمَنِ الذى يَظنُّ أن كلَّ هذه البنادقِ ترْقدُ تحتَ مياهِها الزرقاء اللامعةِ ؟ » .

وظلَّ الإخوةُ جالسين فى الشمسِ وهم يتحدَّثون حتى أخذَتْ كيكى تَصيحُ وهى تنظرُ إلى البحرِ ، فالْتَفَتُوا ناحيَتَه ، فوجَدُوا زورقاً يتَّجه ناحيَتَهم . فقالت أنسامُ : « ماذا نفعَلُ ؟ ! إنه لا يُوجَدُ هنا مَكانٌ يصلحُ للاِخْتباء ، وليْسَ لدَيْنا وقتٌ للرُّجوع دُونَ أن يَرانا مَن فى الزَّورقِ » . ونظرَ الإخوةُ حَوْلَهم فى يأس ، وفَجْأَةً أمسكَ أسامةُ بكُومة هَائلة من الأعشابِ البحريةِ ، وألقاها على أنسامَ وهو يقولُ : « سنُغَطِّى أنفسَنا بهذه الأعشابِ . إن هنا كَمِّيات كبيرةً منها ، أسرِعوا » وبعدَ برهة كان الجميعُ نائمين تحتَ أكداس من الأعشابِ ، وأطلَّ طريفٌ من بين الأعشابِ وقال : « إلهام ، إن إحْدَى قدمَيْكِ تبرُزُ من تحت الأعشابِ فَغَطِّيها » .

ورسا الزورقُ غيرَ بعيد عنهم ، وسمع الأطفالُ صوْتَ رجُلَيْنِ أو ثلاثة يقتربُون ، وأخذَتْ أنسامُ تدعو اللهَ ألاَّ يَصْطَدِمَ بها أحَدُ الرجالِ ، واستجابَ اللهُ دُعاءَها ، فوقف الرجالُ على مَقْربة منهم ، وأشعَلَ رجلٌ لفافة تبغ ، وقال أحدُهم : « لقد وصَلَتِ الشُّحْنَةُ الأخيرةُ اليومَ ، ولا بُدَّ أنَّ هذه البحيرة قد

فوقف الرجال على مقربة منهم

امتلأتْ . فقال رجلٌ آخرُ : « نعم وقد آن الأوانُ لِكَىْ نَنْقلَ بعضَ الأسلحة من هنا ، ويحسُنُ أن نُرسِلَ إلى الزعيم لِيأْمُرَ بنقلِ أكبرِ كَمِّيةٍ مُمْكنة خَشْيَةَ أن يكونَ ذلك الرجلُ الذى اسمُه سميرٌ قدْ عرَفَ شيئاً وأبْلَغَهُ إلى رُؤَسائه » . فقال الرجلُ الأولُ : « وماذا عن الرجلِ الثانى ؟ » فأجابهُ نفسُ الرجلِ : « ضع الاثْنَيْنِ على الزَّورقِ فى هذه الليلةِ ، وما داما يرفضان الكلامَ فسنُغْرِقهما قبلَ أن يُصْبحَ الصباحُ حتى لا يَبُوحَا بِسِرِّنا لِأحد . إن ذلك الرجلَ سميراً قد دَأَب على إفسادِ مشروعاتِنا طَوالَ السنةِ الماضيةِ ، وقد حَانَ وقْتُ الخلاصِ منه » .

وأدخَلَ ذلك الكلامُ الرُّعبَ فى قلوبِ الإخوةِ الأربعة خوفاً على سميرٍ ابْنِ خالتِهم ، وشعَرُوا أنه لا بُدَّ من العملِ على إنقاذه إنقاذاً عاجِلاً قبل أن يُغرِقوه ، ولكنهم

لم يستطيعوا معرفة ذلك الرجل الثانى الذى سيغرقونه مع سمير . . أهو خفاجة ؟ إنهم يظنونه أحد أفراد العصابة .

وبينما أخذ الرجال يسيرون على شاطىء البحيرة ظل الأطفال ساكنين تحت الأعشاب البحرية حتى لا ينكشف أمرهم . وأخيراً سمعوا صوت الزورق البخارى ، فظلوا فى أماكنهم بعض الوقت . ثم أطل أسامة برأسه فى حذر فلم يجد أحداً ، فجلس معتدلاً . . . وكذلك فعل إخوته ، وقال طريف : « لو أن أحدهم تحرك خطوة واحدة لداس على قدمى » .

٦ — مفاجأة أخرى

أخذ الإخوة يبعدون الأعشاب البحرية التى كانت تغطيهم . وكان طريف قد أرغم كيكى على البقاء معه صامتة تحت الأعشاب ، فلما تركها انطلقت تصيح غاضبة : « كيكى أخذت برداً . استدع الطبيب . ضع البراد على النار » . ونظر الإخوة بعضهم إلى بعض نظرات حزينة يائسة إذ تحققوا أن سميراً فى خطر عظيم . وقالت أنسام باكية : « ماذا نفعل الآن ؟ » ولكن أحداً لم يستطع الإجابة عن هذا السؤال . وأخيراً قال طريف : « إن لدينا قارباً سريعاً ، وأقترح أن ننتظر حتى يحل الظلام ، ثم نتوجه إلى جزيرة الأعداء ونحاول العثور على زورقهم ؛ فقد قال الرجل إنهم سينقلون سميراً إليه الليلة » فقالت إلهام : « كيف نستطيع أن نقترب من جزيرة الأعداء دون أن يرونا أو يسمعونا ؟ ! » فقال أسامة : « إننا سنذهب تحت جنح الظلام ، فإذا ما أشرفنا على الجزيرة أوقفت المحرك ، ثم استعملنا المجاديف » فقالت إلهام :

« آه ! لقد نَسيتُ أنَّ القارب به مجاديفُ » . وقال أسامةُ : « والآنَ يجبُ أن نَعُودَ إلى كهفنا لنَتَناوَلَ بعضَ الطعامِ ، ولِنَطمئِنَّ على الزَّورق » .

وتسلَّقَ الإخوةُ التَّلَّ مرَّةً أُخرى ، وعادُوا إلى الكهفِ الصغيرِ حيثُ وجدُوا ملابسَهم وحاجاتِهم كما تَركُوها ، وشعَرَ كلٌّ منهم بالابتهاجِ عِنْدَما وجدُوا الزَّورقَ سليماً فوْقَ رمالِ الشاطِئ ، فذهبوا إليه وأَخذُوا منه بعضَ الأطعمة ، وَجَلسُوا يتناوَلون طعامَهم وهم يُحَاوِلُون أن يكونوا مَرِحِينَ ، ولكنَّ سحابات من الكآبة كانت تذهَبُ بمَرَحِهم : فهم يشعُرُون أن سميراً فى خطرٍ عظيم ، وأنّ الموت يتهدَّدُه وهم قد كشفُوا عن تِلْكَ الأسلحة الراقدة تحتَ مياه البُحيرةِ ، وعرفوا أنّ وُجودَها يدلُّ على أنَّ الأمْرَ جِدٌّ خطيرٍ . وبعدَ لَحَظات سادَهم الصَّمْتُ ، وأخذُوا يأكُلُون وهم واجِمُون[1] . وقال طريفٌ : « لقد فكَّرْت فى الأمرِ ، وأرَى أنّ هذه الرحلةَ التى سَنَقُومُ بها الليلةَ خطيرةٌ ، ويحسُنُ أنْ أَقومَ بها أنا وأُسامةُ وَحْدَنا ؛ فلَيْسَ فيها مكانٌ للبنات ؛ إذْ أخْشَى أن تَتَعرَّضا للأخطارِ » . فصاحتْ أَنسامُ : « لا ! لا ! لا بُدَّ أن نذْهَبَ معكما . إننا لن نَبْقَى على هذه الجزيرة وَحْدَنا وأنتما تذهبان لإنقاذ سميرٍ » . فقال أسامةُ : يحسُنُ أَن نظَلَّ جميعاً ، وهل تعتقدون أن الرجلَ الثانىَ الذى مع سميرٍ قد يكونُ خفاجةَ ؟ » فقالت إلهام : « لقد كانَ يَبْدُو عليه أنه أَبْلَهُ . وَيبْدُو أنّنا أَخطأْنا وحَسِبْناه أحدَ أفرادِ العصابة » . فقال طريفٌ : « لاشك أنه يظُنُّ أننا أطفالٌ أشرارٌ ، وقد تركناه يقَعُ فى قبضةِ الأعداءِ ، وأخذْنا زورقَه أيضاً . » فقال

---

(١) واجمون : ساكتون من الخوف .

أُسامةُ : « ولا شكَّ أنَّ العصابةَ قد ظَنَّتْ أنه زميلُ سميرٍ فعاملوه معاملةً قاسيةً ليُخبرَهم بأَيةِ معلوماتٍ عن سميرٍ أو عن نفسِه » . فقال طريفٌ : « إننى سعيدٌ لِأَنَّ أحداً منا لم يضربْه على رأسِه » . وقالت أنسامُ : « لا بُدَّ أنْ نُصلحَ خطأَنا ونُنْقذَه هو أيضاً ، ويكون فى ذلك بعضُ التَّعويضِ عن أخْذِ زورقِهِ » . وقال طريفٌ لكيكى : « يجبُ عليكِ أن تكونِى هادئةً فى هذه الليلةِ حتى لا تُنَبِّهى الأعداءَ لنا » .

ولما أوشكَتِ الشمسُ أَن تَغيبَ استقلَّ الإخوةُ الزَّورقَ وقاموا بجَوْلَةٍ صغيرةٍ لِكَشْفِ أَيَّةِ صخورٍ قد تُهَدِّدُ إبحارَهم فى اللَّيْلِ ؛ وهنالك عند الأُفُقِ كانتْ جزيرةُ الأعداءِ ، وفى مكانٍ منها كان سميرٌ ، ورُبَّما كان خفاجةُ أيضاً . وقال طريفٌ : « أرجو أنْ يكونَ على الجزيرةِ ضوءٌ يُرْشِدُنا إلى المكانِ ، فإننا لا نستطيعُ أن نَدُورَ حوْلَ الجزيرةِ خَشْيَةَ أن يَتَنَبَّهُوا لنا » . فقال أُسامةُ : « لقد رأينا ضوءاً يُرْشِدُ القاربَ أمسِ ، فلعلَّه يَكُون مُضيئاً اليومَ . والآنَ هيَّا بنا لِنَعُودَ ، وسنَبْدَأُ رحلتَنا عندما يَحِلُّ الظلامُ » .

وما إنْ عادَ الإخوةُ إلى الشاطئ حتى سَمِعُوا أزيزَ طائرة ، فأَسْرَعوا ينبطِحُون على الأرضِ . وقال أُسامةُ : « اقتربُوا من هذه الصخورِ حتى لا يَرانا مَنْ فى الطائرةِ » . واختَبَأَ الجميع خلْفَ بعضِ الصخورِ ، وازداد ضجيجُ الطائرةِ وهى تقترِبُ . وصاح أُسامةُ : « إنها طائرةٌ مائيةٌ . . . . . انظروا » . وحلَّقت الطائرةُ فوق الجزيرةِ مرَّتَيْنِ وهى تكادُ تَلْمِسُ قِمَّةَ التَّلِّ . فقالت إلهامُ : « إنها ستهبطُ فى البُحيرةِ . . » وتوقَّفتْ مُحرِّكات الطائرة ، وانقطعَ أزيزُها

وصاح أسامة : إنها طائرة مائية

وقالتْ أنسامُ : « لقد هبطتْ الطائرة » . فقالت إلهامُ : « تعالَوْا نذهبْ لنرَاها ولا رَيْبَ أنها قد أقبلَتْ لِتأْخُذَ البنادقَ » . فقال طريفٌ : « وكيف يُمْكِنُها ذلك ؟ ! » فقال أُسامةُ : « إنها طائرةٌ ضخْمةٌ ، ولا شَكَّ أن بها جِهازاً يستطيع جَذْبَ الطرودِ من قاعِ البحيرةِ ، ولا شَكّ كذلك أن أفرادَ العصابةِ يَخْشَوْنَ أن يكونَ سميرٌ قد أرسلَ إلى رُؤَسائِه يُنْبِئُهم بأَمرِها ، ولذلك يتعجَّلُون نَقْلَ هذه البنادق من هنا » .

وأسرع الإخوةُ يتسلَّقُون التَّلَّ فى تُؤَدَة ؛ حتى إذا وصلوا إلى قِمَّتِه أَطلُّوا على البُحيرة فى حذَر شديد ، فرَأَوْا الطائرةَ طافيةً على سَطْحِ البُحيرةِ وقد

أضاءت أنوارها . ثم سمعوا أصواتاً معيّنة كأنها أصوات آلة تجذب شيئاً ثقيلا . وقال طريف : « إنهم يرفعون الطرود من قاع البحيرة ، ولا شك أن الطائرة ستطير بعد أن تمتلىء بالبنادق » . فقالت إلهام : « وربما جاءت غيرها أو عادت هى مرة ثانية لنقل شحنة أخرى » . وظل الإخوة بعض الوقت فوق قمة التل ، ثم عادوا إلى الشاطىء وكان الليل قد أرخى سدوله ، فركبوا الزورق . وقال أسامة : « هذه هى المغامرة الكبرى . إن الاختباء كان مغامرة ، وإن الهرب مغامرة أيضاً ؛ ولكن عملية إنقاذ شخص هى المغامرة الكبرى . . » . فقالت أنسام : « هذا إذا لم نقع نحن فى قبضة الأعداء » .

وأدار أسامة محرك الزورق ، وانطلق به بعيداً عن الجزيرة ، واتجه إلى جزيرة الأعداء . وقد ساد السكون ، وجلست كيكى فوق كتف طريف ، « وفزعت فئران أسامة عند سماعها صوت محرك الزورق ، فأسرعت إلى الاختباء . وقالت إلهام : « إننى أرجو أن يصادفنا حسن الحظ فننجح فى إنقاذ سمير . . . . . وخفاجة أيضاً . . . . . ونهزم الأعداء ونعود سالمين . . . » .

الفصل الخامس

١ — إلى جزيرة الأعداء

ظلَّ أسامةُ مُنطلِقا بالزَّورقِ انطلاقًا سريعًا نحو جزيرةِ الأعداء . وبَعْدَ مُدَّةٍ من الوقتِ قال له طريفٌ : « هل ترَى ذلك الضَّوْء ؟ أُرَجِّحُ أنه ينْبَعِثُ من جزيرةِ الأعداءِ ولو أنه ليْسَ ضوْءًا لامعًا كالذى رأيْناه من قبلُ » . فقال أُسامةُ : « سأُوَجِّهُ الزَّورقَ نحْوَ هذا الضَّوْءِ ، وَاجتهِدْ أنْ تجعلَ صديقتَكَ كيكى لا تتكلَّمُ ولا تَصيحُ ؛ فإنها لوْفعلَتْ لسمِعَنا مَنْ يكونُ علَى الْجزيرةِ ؛ إذِ الأصواتُ تسْرِى إلى مسافات بعيدة فوْقَ الماءِ . وسأُضْطَرُّ إلى وَقْفِ المُحرِّكِ بَعْدَ قليل حتى لا يُسْمَعَ صوتُه . » قال طريفٌ : « كيكى ، لا تُحْدِثِى صوْتًا » . فقالت كيكى على الفورِ : « هش . . ش . . ش » فقال طريفٌ : « نعم . هذا حسَنٌ أيَّتُها الببْغاءُ الطيِّبةُ » .

وَقفَ أُسامةُ مُحرِّكَ الزَّورقِ ، فسادَ السكون ، وأخذَ يُعِدُّ المِجدافيْنِ لِلاسْتِعمال وكان طريفٌ يَفْحَصُ الجزيرةَ بمنظاره المُعَظِّمِ ثم قال : « يظهَرُ أنهم يتَّخِذُون من هذا المكان مرْفأً لهم ، فهذا الضَّوْءُ ثابتٌ ، وليس كأضْواءِ المنائرِ التى تُومِضُ وتخْبُو . » فقال أُسامةُ : « كم الساعةُ الآنَ ؟ » فقال طريفٌ : « لقد تجاوزت الحاديةَ عشْرةَ » فقالَ أُسامةُ : « هذا حسَنٌ ! فهيَّا بنا نُجدِّفْ ، ونُقدِّرُ أننا نَصِلُ إلى الجزيرةِ عندَ مُنْتَصَفِ الليلِ ، ويكونُ من المُحْتَمَلِ ألاَّ نجِدَ أحدًا من أفرادِ العصابةِ مُسْتيقِظًا » .

تناوَلَ كلٌّ من طريف وأسامةُ مِجْدافاً وأخَذا يُجدِّفان بقُوّة وعزم ،والزّورقُ يَنزَلِقُ فى سكون فوق صفحةِ الماءِ .وقالت إلهامُ : «عندما تشْعُران بالتّعب نجدِّفُ مكانكما.... أسامةُ ، أينَ فِئرانُك ؟ لقد مرَّ شىءٌ بجانِبِ رِجْلى الآنَ ، إذا تَرَكْتَها تَجْرِى حَوْلى فلن أَمْلِكَ نفسِى ، وقد أصْرُخُ صَرْخَةً تُنَبِّهُ الأعداءَ » فقال أُسامة: « إن الفِئْرانَ معى ، وأنتِ تَتَوهَّمِينَ أنَّ شيئاً مرَّ بجانِبك .وإذا صَرخْتِ.. فسألْقى بكِ فى الماءِ . . . » فقالت أنسامُ : « لا . إنها لَنْ تصرُخَ » وقالت كيكى : « هش . هش .. هش .. » فضحِكَ الجميعُ فى هُدُوءٍ ، وقال أسامة : « يَبْدُو أنَّ هذا الضَّوْءَ قد وُضِعَ لِهِدَايَةِ زَوَارِقِهم عندَ قُدُومِها بالليلِ . وقال طريفٌ : « لقد تعِبْتُ ، فلنأخُذْ قِسْطاً من الراحةِ » فقال أسامة : « لا بأسَ من ذلك » وأرادَتْ إلهامُ أن تقومَ بالتّجديفِ مع أنسامَ ولكنّ طريفاً قال : « إنكما لن تَستَطِيعا التَّجديفَ .. إن فيه إرهاقاً لكما ، ونحنْ لَسْنا فى عَجَلَة من أمرنا ، فكُلَّما تأخَّرْنا كان ذلك خَيْراً ؛ إذْ كلّ تأخرٍ يُقَوّى احتمالَ نَوْمِ الأعداءِ ».

وبعدَ أن اسْتَراحا قليلاً تناوَلا المِجْدافَيْنِ مَرَّةً أخرى ، وأخَذا يُجدِّفان ، وقال أُسامةُ : « لا تتكلَّموا الآنَ إلا همْسًا » وظلّ الزّورق يتقدَّمُ فى هُدوءٍ حتى قالت إلهامُ هامِسةً : « ما هذه الأصواتُ ؟ فأخذ الجميعُ يُنصِتون . وقال طريفٌ : « أليسَ هذا صوتَ مُوسيقى ؟» فقال أسامةُ :« إنها مُوسيقى مُنْبَعِثة من جِهازِ راديو، إن ذلك لن يُمكِّنَهم من سَماعِ أصواتِ مِجْدافينا ونحنُ نَقْتربُ . . . أليس هذا زَوْرقًا بالقُربِ من الضَّوْءِ ! » فنظرَ طريفٌ من خِلالِ مِنظارِه المُعَظِّمِ وقال : « نعم . وهو زَوْرقٌ كبيرٌ ، وأعتقدُ أنه هو الذى جاء فيه الأعداءُ إلى جزيرتِنا فى

المرَّةِ السابقةِ، وأُراهِنُ أَن سميرًا فى هذا الزَّورقِ » واستمرَّ صوتُ الموسيقى يصِلُ إلى الأطفالِ ، فقال طريفٌ : « لا رَيْبَ أَن الحارسَ هو الذى يستمِع إلى الراديو على سَطحِ الزَّورقِ » وقال أُسامةُ : « انظرْ . هل ترَى هذا الوهجَ الصغير إنه طرَفُ لفافة تبغ يُدخِّنُها الحارسُ » فقال طريفٌ : « هذا مُحْتَمَلٌ » . فقال أُسامةُ : « إننا لن نَستطيعَ الاقترابَ أَكثرَ مِمَّا نحنُ الآنَ ، ولو قد فعلْنا لأَحسَّ بنا الحارسُ ، فتَخفق خُطتُنا » . فقالت أنسامُ : « وماذا نفعَلُ إذًا ؟ » فقال أُسامةُ : « سننتَظِرُ حتى ينامَ الحارس » .

وقال طريف لأُسامةَ : « لقد خطرَتْ لى فِكْرةٌ . . هى أن نَسْبَحَ أنا وأنت إلى ذلك الزَّورقِ ، ونصعَدَ إلى سَطحِه ، ونفاجِىءَ الحارسَ ونُلقِيه فى الماء ، ثم نسْرعَ إلى مقصورةِ الزَّورقِ ونُطْلِقَ سَراحَ سميرٍ ، وقبل أَن يستطيعَ الحارسُ تنْبيهَ زُملائه نكونُ قد أَسرَعْنا بالفرارِ ، أو نَستَولى على الزَّورقِ نفسِه ، وبذلك يُصْبِحُ لَدَيْنا زورقان » . فقال أُسامةُ : « ولكننا لسْنا واثِقينَ من أَنَّ سميرًا فى الزَّورقِ ، وقد لا نتمكَّن من إلقاءِ الحارسِ فى الماءِ ؛ ورُبَّما كان هناك أَكثر من حارسٍ . إننى أُوافِقُ على الجُزءِ الأولِ من الخُطةِ ، فنستطيعُ أن نَسْبَحَ إلى الزَّورقِ فى هُدُوءٍ ، ثم نتسلَّلَ إلى الجزءِ المُظْلِمِ من الزَّورقِ ، ونقومَ بالاستِطْلاعِ أَوَّلاً . هيَّا بنا . . . »

أَلقَى الصَّبِيَّان نفسَيهما فى الماءِ ، وأَخذا يسبحَان فى الظلامِ سباحةً هادئةً حتى وصلا إلى الزَّورقِ ، وما زال صَوْتُ المُوسيقى والغناءِ يَنْبَعِث من الراديو ؛ فظلَّ الصَّبيان ساكِنَيْنِ فترةً من الوقتِ ، ثم سمعا صَوْتَ الرجلِ يتثاءبُ

تثاؤباً شديداً، ثم انقطعَ صوتُ الراديو، وظلَّ الصبيَّان فى مكانِهما هادِئَيْنِ، وبعدَ نحوِ عشْرِ دقائقَ شاهدا نهايةَ لِفافَةِ تبغٍ مُشْتَعِلةٍ تطيرُ فى الهواء وتسقطُ فى البحْرِ، فأدركا أن الحارسَ على وَشْكِ أن يستَسْلِمَ لِلنومِ، وأنه وَحدَه؛ لأنه لو لم يَكنْ وَحدَهُ لتكلَّمَ مع زُملائِهِ. ولم يَمْضِ إلا قليلٌ حتى سمِعا صوْتَ شخيرِ الحارسِ فاطمأنَّا إلى أنه قد استغرَقَ فى النومِ، وتسللا فى خِفَّةٍ وسُكون إلى ظهرِ الزَّورقِ حيث كانَ الحارسُ نائماً، وسارا على أقدامِهِما الحافيةِ التى لا تُحْدِثُ صوْتاً.

سمع أسامةُ شيئاً، فأمسكَ بذِراعِ طريف ووقفا ينْصِتانِ. فسمعا أصواتاً تأتى من مكان تحت أقدامِهما، ودلَّهم شعاعٌ من النُّورِ يتسَرَّبُ من فُرجة فى بابِ المقصورةِ إلى مكانِها، فاقتربا منها، وأخذا ينْصِتانِ ... يا ترى! هل سميرٌ فى هذه المقصورةِ؟ ومع مَنْ يتكلَّمْ؟ أو هم بقيةُ أفرادِ العصابةِ يتسامرون؟ وشعرَ أسامةُ وطريفٌ أنه من الحُمْقِ أن يُلقيا بالحارسِ النائم إلى الماءِ ويُسْرِعا بفتحِ بابِ المقصورةِ ليجدا بقيةَ الأعداءِ أمامَها .. وأخذا ينْصِتانِ بُرْهةً أخرى، وارتفعَ صوْتُ أحدِ المتكلِّمين. فعرفا فيه صوْتَ سميرٍ.

وقال طريفٌ لأسامةَ: «إذا ألقيْنا الحارسَ الآنَ فقد يُحْدِثُ ضجَّةً كبيرةً ولا نستطيعُ أن نُخرِجَ سميرًا ونشرَحَ له الموقفَ على عجَل، ولعلّه من الخيْرِ أن نفتحَ بابَ المقصورةِ فى هُدُوءٍ، وعندئذٍ يستطيعُ سميرٌ أن يُساعدنا، وأن يَتولَّى زِمامَ الأمر» فقال أسامةُ: «حسناً! قمْ أنتَ بفتحِ بابِ المقصورةِ وأقِفُ أنا بجانبِ الحارسِ، حتى إذا استيقظَ هجمْتُ عليه واشتبكْتُ معه فى

عِراكَ حتى تنْتَهِيَ من عملِكَ . فأخذَ طريفٌ يجذِبُ البابِ بأصابعَ مُرْتَجِفَة حتى فتَحَهُ ، ثم رفعَ البابَ ، ونظرَ الرجلان اللَّذان كانا بالداخِلِ إلى أَعْلَى ، وكان أولهُما سميراً ، والآخرَ خفاجةُ ... ووثب سميرٌ واقفاً ، ولكنَّ طريفاً وضَعَ إصْبَعه

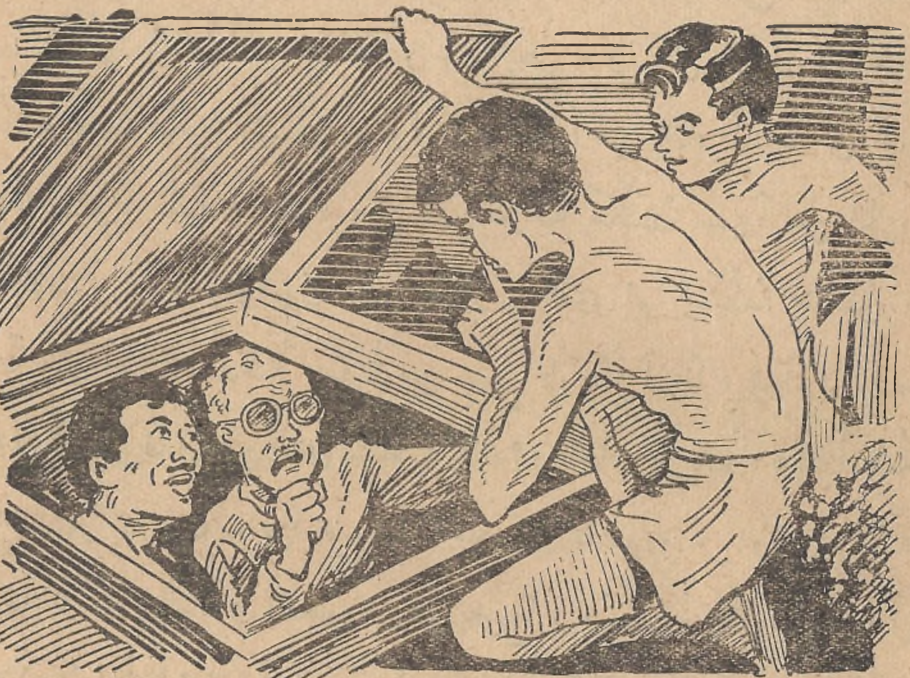

ثم رفع الباب و نظر الرجلان اللذان كانا بالداخل إلى أعلى

على شفتَيْه مُحَذِّراً ، فسكتَ عن السؤال . ولكنَّ خفاجةَ أفسدَ كُلَّ شيء ، فما كاد يَرَى طريفاً حتى صاح : « هذا هو الولدُ الشريرُ المُجْرِمُ ، انتظرْ حتى أقْبضَ عليك »

٢ — الفرار

حال طريفٌ أن يُسْكِتَ خفاجةَ وهو يُشِيرُ ناحيةَ الحارسِ النائمِ، ولكن الفُرْصَةَ كانت قد ضاعَتْ. هبَّ الحارس من نَوْمِهِ صائحاً: « ما هذا؟ مَن هناك؟ وأسرع أُسامةُ فوَثَبَ على الرجلِ؛ وفى اللَّحظةِ نَفسِها أسرع سميرٌ بإطفاء النورِ. وحاول أُسامةُ أن يدفعَ الحارسَ إلى البحرِ، ولكنَّ الرجلَ كان عِمْلاقاً ضخْماً، فأَخذَ يقاوِمُ بشدَّةٍ، وتمكَّنَ أَخيراً من إلقاءِ أُسامةَ فى البحرِ مُحْدِثاً صوْتاً عالياً فى الماءِ، إلا أَنَّ المعركةَ مكَّنتْ سميراً من الخروجِ من المقصورةِ، والوصولِ إلى الحارسِ الذى لم يَكَدْ يتخلَّصُ من أُسامةَ حتى أصابَتْه لكمةٌ جبَّارةٌ من سميرٍ طرَحَتْه أرضاً، وَجَثَمَ[1] سميرٌ فوْقَه وسأل طريفاً: « مَنِ الذى سقَطَ فى الماءِ؟ » فأجاب طريفٌ: « إنه أُسامةُ » وصاح سميرٌ بطريف: « هيَّا نضع هذا الحارسَ فى المقصورةِ ». وتعاوَنَ الاثنانِ على حَمْلِ الرجلِ وإِلْقَائِه فى المقصورةِ وهوَ يَصِيحُ ويصْخَبُ. وقال سميرٌ: « أين هذا الأحمقُ خفاجةُ؟ لقد أفْسَدَ كُلَّ شئٍ. » وكان خفاجةُ يَقِفُ بَعِيداً عن مكانِ المعركةِ وقد تملَّكَه الذُّعرُ. وقال سميرٌ: « هيَّا نبحِرْ بالزورقِ قبلَ أن يَفْطُنَ الأعداءُ لما يَحْدُثُ » وقال طريفٌ: « كيف نُدِيرُ المُحرِّكَ فى هذا الظلامِ » وكان الحارسُ المسجونُ فى المقصورةِ يَصِيحُ ويُهدِّدُ ويدُقُّ البابَ بكُلِّ قوَّتهِ محْدِثاً ضجَّةً عظيمةً، ولكنَّ سَمِيراً لم يَأْبهْ له، وتقدَّمَ من عَجَلَةِ القيادةِ.

وعندئذ توالَتِ الأحداثُ....

---

(١) جثم: ركب.

حتى أصابته لكمة جبارة من سمير طرحته أرضاً

أُضيئت عدَّةُ أنوارٍ على الشاطئ ، وارتفعت أصواتٌ تُنادِى . وسُمِعَ وقْعُ أقدامٍ تجرِى على الشاطئِ هنا وهناك . . . فقال سمير : « سيُدرِكوننا قبل أن نستطيعَ الإبحارَ بالزورقِ . سمِعْتُك تقولُ إن معكم زورقًا ، أين هو ؟ ! » فقال طريفٌ : « نعم . إنَّ الزَّورقَ قريبٌ وبه إلهامُ وأنسامُ ؛ وربَّما عاد إليه أُسامة الآنَ . » فقال سمير : « هيَّا بنا . خفاجة . أينَ أنتَ ؟ تعالَ معنا . أسرِعْ » ولكن خفاجة قال متردِّداً : « إننى . . . لا . . . أستطيعُ . . . السباحةَ » فصاحَ سمير : « اقفزْ إلى الماء وسأساعِدك » تراجَعَ خفاجةُ مذعوراً من فكرةِ الوثوبِ إلى الماءِ فى الظلام . فقال سميرٌ باحتقارٍ : « ابْقَ هنا — إذاً — وَحْدَكَ أيُّها الغبيُّ الجبانُ ، إننى لا أستطيعُ التَّخلِّى عن هؤلاءِ الصِّبْيَةِ » .

وَثَبَ سميرٌ وطريفٌ إلى الماءِ ، وَبقى خفاجةُ يرتجِفُ فى انتظارِ الأعداءِ . .

وصَلَ الأعداءُ وهم يَحْمِلون بطارياتهم ، وانتشرُوا على سطحِ الزورقِ يبحثُون عن سببِ الضَّجَّةِ ، وسرْعانَ ما وجدُوا خفاجة فجذَبُوه جذْباً عنيفاً ، ودارُوا حوْله ، والحارسُ مازال يبعثُ صِيَاحه من داخِلِ المقصورة . وكان سميرٌ وطريفٌ يسبحان بكلِّ قُوَّتِهما ، وسمعا ما يحدث على الزَّورقِ ، وتمنَّيا ألَّا يُخبِرَ خفاجةُ الأعداءَ بما حدث ، وأن يترُكَ هذا الأمرَ للحارس ؛ فإن هذه الدَّقائقَ التى سيتأخَّرُها الأعداءُ قد تَكفِيهما للهرب . وكان أُسامةُ قد سبقهما إلى زَوْرَقِهم ، وأخذ يُطَمْئِنُ أُخْتَيْه ، فلما سمعَ صوْتَ الماءِ وهما يسبحان فيه أَمسكَ بطاريَّته وأرسلَ منها وَمْضَةً أو ومضتَيْنِ ليُرْشِدَهما إلى مكان الزَّورقِ فاتَّجها إليه مُسْرِعَيْنِ ، وفى لمحِ البصرِ صَعِدَا إلى سَطْحِه . وقال سمير :

« لِنَبْتَعِدْ عن هذا المكان » . فقال طريفٌ : « إنَّ لَدَيْنَا مِجْدَافَيْنِ ؛ فإنَّ صَوْتَ المُحَرِّكِ إذَا استعْمَلْنَاه يُنَبِّهُ الأعداءَ لنا ، ويُرْشِدُهم إلى مكانِنا » . فقال سميرٌ : « لا يَجِبُ أن نَنْطَلِقَ بأقْصَى سُرعة لأنَّهم سيُطارِدُوننا عَجِلِينَ مُطاردةً شديدةً ، ولا بُدَّ أن نسبِقَهم بحيْثُ يكونُ بيننا وبينهم شوْطٌ بعيدٌ » . وأسرعَ سميرٌ لِيُدِيرَ مُحرِّكَ الزَّورقِ وهو يقولُ لِلصِّبْيَةِ : « انبطِحُوا جميعًا على الأرضِ ، فلن يَمْضِيَ وقتٌ طويلٌ حتى يُمْطِرُونا وابلاً من رَصاصِهم » .

وأدارَ سميرٌ المُحَرِّكَ وارتفعَ صَوْته فى سكونِ الليلِ الذى لم يَكُنْ يُعَكِّرُهُ سِوَى أصواتِ أفرادِ العصابةِ على الزَّورقِ الآخرِ . وبَعْدَ لحظات سكتَتْ جميعُ الأصواتِ ، فقد دُهِشَ الجميع لِصَوْتِ الزَّورقِ لِأنَّهم كانوا يَظُنُّون أن الهاربِينَ ما زالوا يسبَحُون فى الماءِ ، ولم يكُنْ يخطرُ لهم أنَّ معهم زَوْرقًا . ثم مَضَتْ لَحَظاتٌ من السكونِ أدْرَكَ بعدَها الأعداءُ أن عليهم وَقْفَ هذا الزَّورقِ ومَنْعَه من الهَرَبِ بكلِّ الوسائلِ ، فإن إفلاتَ هذا الزَّورقِ من بَيْنِ أيْدِيهم نَتيجَتُه افتضاح أعمالِهم الإجراميةِ ، وفَشَلُ مؤامراتِهم . وأطلقَ أحدُ الرجالِ مُسَدَّسَه ، وتتابَعَ إطلاقُ النارِ ، وأخذَتِ الطلقاتُ تتطايَرُ حوْلَ الزَّورقِ وفَوْقَه ، فصاحَ سميرٌ : « لا ترفعوا رُءوسَكُمْ ، وسنبتَعِدُ عن مَرْمَى طلَقاتِهم بعدَ قليلٍ » . وظل الزَّورقُ مُنْطَلِقًا انطلاقًا شديداً وهو يشُقُّ مِياهَ البَحْرِ بقُوَّة ، والطَّلَقاتُ تتطايَرُ مِن حَوْلِه . . وفَجْأَةً أطلقَتْ كيكى صيحةً عاليةً ، وكانت تجلسُ فوقَ طريف وهى فى دَهْشَة من تلك الضجةِ العظيمةِ . وصاح طريفٌ : « لقد أُصِيبَتْ كيكى » . وجلسَ طريفٌ لِيَرَى ما حَدَثَ لببغائه ، ولم

تَنْطِقْ كيكى بكلمة واحدة ، ولكنَّها أخذتْ تصيحُ مُتألمةً . وأدركَ سميرٌ أنَّ طريفاً ليس مُنْبَطِحاً على الأرضِ فصاح به : « انبطِحْ على الأرض أيُّها الأحمقُ . هل تريدُ أن تُصابَ أنتَ كما أُصِيبَتْ ؟ » فقال طريفٌ : « ولكن كيكى .... » فصاح سميرٌ : « أَطِعِ الأوامرَ ، ونَفِّذْ ما أَمرتُكَ به ... انبطِحْ ... إن كيكى بخيرٍ ، ولو أنَّها أُصِيبَتْ إصابةً قاتلةً لما استطاعَتْ أن تَصِيحَ كلَّ هذا الصياحِ » . وانْبَطَحَ طريفٌ على الأرضِ ، وكان الجميع فى غايةِ القلق لِمَا يَكُونُ قد حَدَثَ لكيكى .

توقَّفَ إطلاقُ النارِ ، ولكنَّ صوتاً آخرَ انبعَثَ من الظلامِ ووصل إليهم خافتاً . فقال سمير : « هذا صوْتُ زَوْرَقِهم ، لقد بَدَأُوا فى مُطَارَدتِنا ، ومن حُسْنِ الطالِعِ (١) أن الظلام حالكٌ » .. وأُوقِدَتْ كشافاتٌ قويَّةٌ على الزورقِ المُطارِدِ ، ولكن الضَّوْءَ لم يَصِلْ إلى زَورقِ الإخوةِ . فقال سميرٌ : « لقد سبَقْنَاهم بشوط طويلٍ .... كيكى ، كُفِّى عن هذا الصياحِ . إنكِ لم تُصَابِى بشىءٍ .. » وقال أُسامةُ : « إن زورَقهم كبيرٌ وأَقْوَى من زورقِنا ، ورُبَّما أدركونا فى النهايةِ ، وسينْطَلِقُونَ هم إلى عرضِ البحرِ ظنًّا منهم أننا نُسرِعُ إلى الابتعادِ . » فسأله سميرٌ : « أيَّةَ جزيرة تقصِدُ ؟ وماذا فعلْتُم فى الوقتِ الذى غِبْتُه عنكم » فأخذ أُسامةُ يرشِدُ سميراً إلى الطريقِ المُؤَدِّى إلى الجزيرةِ التى بها البُحيرةُ .

وكانتْ أنوارُ الزورقِ الآخَرِ مازالتْ تغمُرُ المياهَ بحثاً عنهم ، إلا أنهم كانوا يَسِيرُونَ فى اتِّجاه مُضَادٍّ لاتجاهِهم . وقال طريفٌ : « لقد توقَّفَ إطلاقُ النار

---

(١) حسن الطالع : حسن الحظ .

فهل أستطيعُ أن أجلسَ لأرَى ما إذا كانت إصابةُ كيكى خطيرةً أو غيرَ خطيرة ؟ » وقبل أن يُجيبَه سمير تغيَّر صوتُ مُحرِّكِ الزَّورقِ ، وأخذَتْ تصدُرُ عنه ضجَّةٌ غيرُ عاديَّة ، ثم توقَّفَ المُحرِّكُ . فقال سميرٌ : « لقد نفِدَ الوقودُ . . . وعَلَيْنا أن نُجدِّفَ الآنَ » .

٣ — قصَّةُ سميرٍ

فزِعَ الإخوةُ عندما علموا أن الوقودَ قد نفِدَ . وقالت إلهامُ : « ياسوء الحظِّ ! ألَا ينفدُ الوقودُ إلاَّ ونحنُ على وشْكِ الوصولِ إلى الشَّاطِىء ! ! ... » ، ومدَّ طريفٌ يَدَه يتحسَّسُ جِسْمَ كيكى ورجلَيْها ومنقارَها ، وكانت تُغمْغِمُ بكلمات لا مَعْنَى لها . ثم قال : « إنَّكِ غيرُ مُصابة ، فلماذا أَحدَثْتِ كلَّ هذه الضجةِ ؟ . إنى خَجِلٌ منك . » فصاحَتْ كيكى : « استدْعِ الطبيبَ . كيكى أخذَتْ برْداً » ثم وضعَتْ رأسَها تحتَ جناحَيْها . وقال طريف : « إنها لم تُصَبْ بشَىْءٍ ولكن يَبْدو أن إحْدَى الطلقاتِ مرَّتْ بالْقُربِ منها فأزعَجتْها ؛ ولذلك أَخذَتْ تَصِيحُ » فقالت إلهامُ : « كَفَى كلاماً عن كيكى ، ولنتكلَّمْ عمَّا سنَفْعَله نحن » وكان سميرٌ مستغرِقاً فى التفكيرِ فِيما يَجبُ عليه عَمَلُه : . . . أَيُجَدِّفُ فى اتِّجاهِ الجزيرةِ ، أم يتَّجِهُ إلى عرضِ البطرِ ؟ وأخيراً قال : « إنَّ من الصوابِ أن نَذْهَبَ إلى الجزيرةِ التى أَخبرْتُمونى عنها » فقال طريفٌ : « إنَّها ليْسَتْ بعيدةً عنَّا الآنَ ، وأستطيعُ أن أُميِّزَ شاطِئَها مِنْ هنا ، هل تَرَاها ياأُسامةُ ؟ » فقال أُسامةُ : « لَسْتُ واثقاً مِمَّا إذا كان الذى أراه هو الشاطِىء ، أو أنه مجردُ ظلال » فقال سميرٌ : « أيًّا كان الأمرُ فلْنَتَّجِهْ إلى هذا الذى نَراه » .

تناوَلَ سَميرٌ المِجدافَيْنِ وأَخَذ يُجَدِّفُ مُتَّجهاً إلى المكان الذى يَرَاه أُسامةُ. وبعْدَ قليلٍ قال: «إنها جزيرةٌ حقًّا. وأَرْجُو أَلاَّ تكون هناك صخورٌ حَوْلَهَا فَنَصْطَدِمَ بها». فقال طريفٌ: «لا. لا توجَدُ صخورٌ حَوْلَ الجزيرةِ، أو على الأقلِّ حَوْلَ المكانِ الذى سنتجِهُ إليه».

وما كادَ طريفٌ يَنْتَهِى من كلامِه حتى اهتز الزورق اهتزازاً شديداً مُضْطَرِباً، وسمعَ الجميعُ صوتَ احتكاكٍ حادٍّ ثم توقفَ الزَّورقُ فى مكانِه. وقال سميرٌ: «لقد اصطدَمْنا بالصخورِ.. ولن يُمْكِنُ زحزحةُ الزَّورقِ من فَوْقِهَا حتى يَأْتِىَ المَدُّ ويرتفعَ الماء فيطْفُوَ الزَّورقُ فَوْقَ مُسْتَوى الصخور». وقال أُسامةُ: «لا بُدَّ أَننا جئْنَا إلى مكان لا نعرفه من الجزيرةِ». وقال سميرٌ: «أَعْطُونى بطَّاريةً حتى أرَى ما إذا كان الزَّورقُ أصابَه عَطَبٌ أَو لَمْ يُصِبْه» وفَحَصَ سميرٌ قَاعَ الزَّورقِ فوجَدَه سليماً. وقالت أنسامُ: «فلْنَتَنَاوَلْ بعضَ الطعامِ فإننى جَوْعانةٌ». وقال طريفٌ: «إننى سأَرْتَدِى ملابِسِى لأَنِّى لم يَكُنْ لَدَىَّ وقتٌ أَرْتَدِيها بعْدَ هذه المُطَارَدةِ العنيفةِ». وقالت إلهامُ لسميرٍ: «إن ملابِسَك مُبْتَلَّةٌ، فخُذْ بعضَ ملابسِ خفاجةُ فقد تَصْلُحُ لك حتى تَجِفَّ ملابسُك» فأَخَذَ سميرٌ يبْحَثُ حتى وجَدَ بعضَ الملابسِ الجافَّةِ فارْتَدَاها وارْتَدَى كلٌّ من طريف وأُسامَة ملابِسَهما وجلسوا فى الظلام يتناوَلُون الطعامَ. وقال سميرٌ: «أَرَى أَن يَقص كلٌّ منا ماحدَثَ له مُنْذُ أَن افتَرَقْنا» فقالت أَنسامُ: «قصَّ علينا قِصَّتَك أَوَّلاً، فإننا نُريدُ أن نعرِفَ ماذا حدث لك. لقد أَفزَعْتَنا جداً عندما لم نَجِدْكَ فى الزَّورقِ ووجَدْنا مُحَرِّكه مُحطَّماً

وجهازَ اللاسلكىِّ مُهَشَّماً » . فقال سميرٌ : « نعم . لقد أَخبرُونى أنهم حطَّمُوا الزَّوْرقَ وجهازَ اللاسلكىِّ . وكان من الواضحِ أَنَّهم لا يعلمُون بوجودِكم على الجزيرةِ ، ولذلك لم أُخبِرْهم بشىْءٍ عنكم . وكلُّ ما حدَثَ هو أنى كنتُ أُحاوِلُ أَن أَبعثَ برسالة لاسلكية ، فلم أَنجحْ فى ذلك . . . » فقالت أَنسامُ : « لقد كُنَّا نأمُلُ أن تكونَ قد تمكَّنْتَ من إرسالِ البرقيةِ حتى تأتِىَ النَّجْدةُ » . فقال سميرٌ : « إنَّ رُؤسائِى يعرفون أنى هنا ، ولكنهم لايعرِفُون شيئاً أكثرَ من ذلك » . قالت أنسامُ : « وماذا حدَثَ ؟ » أجاب سميرٌ :

« بينما كنتُ مُنهمِكاً فى ضبْطِ الجهازِ أَصابتْنِى ضَرْبَةٌ شديدةٌ على رَأسِى أفقدَتْنى صَوابى ، وعندما أَفَقْتُ وجدْتُ نفسِى سجيناً على الجزيرةِ . وقد استجْوَبُونى ولكنَّهم لم يظفَرُوا منى بِشَىْءٍ . . والعجيبُ أَن هؤلاء الرجالَ هم أنفسُهم الذين جِئْتُ إلى هنا حتى أَبْتَعِدَ عن طريقِهم » . فقال أُسامةُ : « ومن عجيبِ الصُّدَفِ أَننا اخْتَرْنَا هذا المكانَ لِنَقْضِىَ فيه عُطْلَتَنَا . ولا شكَّ أنهم ظنُّوا أَنك قد كَشَفْتَ مكانَهم وتتبَّعْتَهم إلى هنا » . فقال سميرٌ : « هذا هو الذى حدَث ، وأَكثرُ من ذلك أَنهم ظنُّوا أَن أَحَدَ رجالِهم قد خانَهم وأَخبرَنى بسرِّهم فأَرادُوا أن يعرِفُوا اسمَه منى ، وأَعتقِدُ أن هذا هو السَّبَبُ فى إبقائِهم علىَّ وعدمِ قتْلى بمُجرَّدِ القبضِ علَىَّ » . وأخرجَتْ كيكى رأسَها من تحتِ جناحِها وصاحَتْ : « ضَعِ البرَّادَ على النارِ . . . » ولكنَّ أحداً لم يلتفت إليها ؛ فقد كانَتْ قِصَّةُ سميرٍ شائقة . واستأنف سميرٌ كلامَه : « ولم يُفلِحُوا فى معرفةِ شىءٍ منى لأنى لم أَكُنْ أعرفُ شيئاً ، وكلُّ ما كنتُ أعرِفُه هو أنهم

يُهَرِّبُون الأسلحةَ إلى مكان ما ، وقد أَدْركوا أَنَّني فى أثرهم ، ولا سيّما أنني سبَقَ أن أحْبَطْتُ مشروعاً لهم ، ولو أنّنا لم نقبِضْ على زعمائِهم » فقال أسامة : « ولذلك تتبَّعُوك لِيقبضُوا عليك فأُمِرْتَ أنْ تختفِيَ ، واخترْت هــذا المكانَ لِتَختَفِيَ فيه » فقال سميرٌ : « نعم . وهكذا دخلْت عرين الأســد بنفسى وأَخذْتُكم معى . . . ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى أحضرُوا خفاجة وقد ظنُّوا أنه من رِجالى ، وأنه جاء لِيُساعِدَنى . وقد حِرْتُ فى أمرِه ولم أعْرِفِ الحقيقةَ إلا عندما انفردْتُ به ، وأخذَ يقصُّ علىَّ ما حدَثَ له معكم . وقد استَنْبَطْتُ مِمَّا روَاه لى أنكم عاملْتُمُوه معاملةً قاسيةً » . فقال طريفٌ آسفاً : « نعمْ . والحقيقةُ أَننا ظنَنَّاه أحدَ أفْرادِ العصابةِ وقد جاءَ مُنْتَحِلاً صِفَةَ العُلَماءِ مُحِبى الطيورِ لِكَىْ يَخْدَعَنا ويقبِضَ علينا » . فقالت إلهامُ : « ولذلك قبَضْنا نحن عليه وسجَنَّاه فى حُفْرة عثَرْنا عليها » . فقال سميرٌ : « نعم . وقد تناوبْتُم ضَرْبَه على رأسِه كُلَّما أَطَلَّ خارجها . وقد أَخبرَنى أن الفتاتَيْنِ أيضاً ضرَبَتاه » ، ودُهِشَ الجميعُ لهذا الكذبِ وصاحُوا : « ماذا ؟ إننا لم نَضْرِبْه أبدًا » فقال سميرٌ : « إنى لم أَكُنْ لِأُدهَشَ إذا عَلِمْتُ أَنَّ أسامةَ أو طريفاً ضرَبَه . ولكنى لم أُصدِّقْ أن إلهامَ وأنسامَ تَضْرِبانه ، وقد قال : إن أنسامَ كانتْ أشدَّهم قسوةً . . . » . فصاحت أنسامُ : « إننى أنا وَحْدِى التى قُلْتُ إنى لا أستطيعُ ضَرْبَه » فابتسمَ سميرٌ وقال : « ولكنكم أخفتُمُوه كثيرًا ، ولم يُصَدِّقْ أفرادُ العصابةِ قِصَّتَه عنكم . وتظاهَرْتُ أنا أيضاً بعدَمِ تصديقِ ذلك ؛ لأنى لم أكنْ أُريدُ أن يَنْتَبِهُوا لكم ويقبضُوا عليكم . وقد حِرْتُ فيما عساكم تفعلُون بعد

أن عَلِمْتُ من خفاجَةَ أنكم قد استوليتم على زَوْرقه . » فقالت أنسامُ : « إننى لا أُحب هذا الرجلَ خفاجةُ ؛ فهو كاذبٌ ؛ أحمقُ ، جبانٌ ، وأرجو أن يُعَذِّبَه الأعداء » . فقال طريف : « ولو لم يَصْرُخْ هذه الليلةَ عندما فتحتُ بابَ المقصورةِ لاستطعنا أن نستوليَ على الزَّوْرقِ الكبيرِ السريعِ ، واستطعنا أن نَعُودَ سالِمِينَ » . فقال سميرٌ : « نعَمْ . هذا صحيحٌ ، والآن . . . قُصُّوا علىَّ قِصَّتَكم » فأخذُا يقُصُّون عليه ما حدث . . ولما أخبرُوه بأمرِ البحيرةِ والأسلحةِ المُخبَّأة فى قاعِها قال : « إذًا . . هذا هو المَخْبأُ الذى يُخْفُون فيهِ الأسلحةَ حتى إذا حانَ الوقتُ المناسبُ قاموا بنقلِها . . . » فقال أُسامةُ : « لقد قاموا بنقْلِ بعضِها أمسِ فى طائرة مائية » وقال سميرٌ : « هناك شَىْءٌ أُريد أن أسألكم عنه . . . لماذا لم تُغادِرُا هذه المِنطقةَ وتَنْجُوا بأنفسِكم عندما استوليتُمْ على زَوْرَقِ خفاجةَ ؟ » فقال أُسامةُ : « لقد فضَّلْنا أن نبقَى ونَبْحَثَ عنك حتى نَجِدَك ، وقد كان هذا رأْينَا جميعًا » وساد السكونُ بُرْهةً ، ثم مدَّ سميرٌ ذراعَيْه واحتضنَ أولادَ خالته الأربعةَ وقال : « إننى لا أستطيعُ أن أُعبِّرَ لكم عن شعُورى . إنَّكم مازِلْتُم صِبْيةً ولكنكم تعرفون مَعْنَى الإخلاصِ والوفاءِ والتَّضْحيةِ والبَذْلِ من أجلِ الإخْوان . وأنا فخورٌ بكم بصداقَتِكم أكثرَ من فخرى بقرابتكم » ، وشعَرَ الجميعُ بالراحةِ والطُّمأْنِينَةِ عندما رَأَوْا هذا التقديرَ من سميرٍ . وقالت أنسامُ : « إنك أغْلَى قريب ، وأعزُّ صديق لنا . . وإن مصاحبَتنا إياك ، وحِرصَك الشديدَ على راحتنا ومُتْعَتِنا وإرشادِنا وتخليصِنا من المآزق . . كل هذا معروفٌ لا يَضِيعُ » فقال سمير : « وقد أثبتُّم أنكم شجعانٌ حتى فى أحرجِ الأوقاتِ ، وقد قُمْتُمْ

بعملٍ مَجيد، وكشفتُم سِرَّ العصابةِ الشريرةِ . ولو كان لدَينا جهازٌ لاسلكى لأخبرْتُ الرُّؤساءَ وقبضْنَا على الأشرارِ مُتَلبِّسِينَ بجريمتهم » فصاحَ أُسامة : « جِهاز لاسلكى ؟ كيف نَسيناه ؟ إن هذا الزَّوْرقَ به جِهازٌ ولكنْ من نوعٍ لم أرَهُ من قبلُ » وصاح سميرٌ : « أينَ هو . . ؟ ولماذا لم تُخبِرْنى من قبلُ بوجودِه ؟ » فقال أُسامةُ : « إننا لم نستطِعْ أن نعرِفَ كيف نستخدِمُه فنَسِينا كلَّ شيءٍ عنه » فقال سميرٌ : « أَرجو أن يكونَ صالحاً للاستِعمالِ حتى أستطيعَ أن أُرسلَ برقيةً إلى رُؤسائى » وكانَ ضوْءُ الفجرِ بَدأ ينتَشِرُ . فأخذَ سميرٌ يُحاوِلُ ضبْطَ الجِهازِ وهو يقولُ : « إنه ليس نوْعاً مُمْتازًا ، ولكنَّه قد يُؤدِّى إلى الغرَضِ . فلو استطعْتُ استِعمالَه دقيقةً أو دقيقَتَيْنِ لالْتقطُوا رسالتى ، إذ لاشكَّ أنَّهم فى انتظارِ أيَّةِ رِسالةٍ مِنِّى بعدَ كلِّ هذه الأيامِ من الصَّمْتِ . »

وأخذَ الجِهازُ يُصْدِرُ أصواتاً غريبةً ، ويئِزُّ(١) ويئِنُّ وسميرٌ يعجَبُ من أمرِه ، وبعدَ مُحاولات ومُحاولاتٍ استطاعَ سميرٌ أن يضبِطَ الجِهازَ ، فأرسلَ إشارةً . وانتظرُوا الرَّدَّ لِكَىْ يعرِفَ أن الاتِّصالَ قد تَمَّ ، ولكنه لم يتلَقَّ جواباً ، فقد كان الاستقبالُ مُعطَّلاً ، فلم يَجِدْ سميرٌ بُدًّا من إرسالِ البرقية وطلبِ نجدة عاجلة ، ووَصفَ المكانَ وحدَّدَ مَوْقعَ الجزيرةِ . ولما لَمْ يتلقَّ رَدًّا أعاد إرسالَ البرقيةِ ، وكرَّرَ ذلك عدَّةَ مرَّاتٍ ، وهو يرْجُو أن تُلْتَقَطَ إحداها . وفى النِّهايةِ قال سميرٌ : « كان يجِبُ أن أُدْركَ من أولِ الأمرِ أن خفاجة لا بُدَّ قد زوَّدَ زورقَه بهذا الجهازِ إذ إنه يقومُ بالرحلةِ وَحْدَهُ ، فرُبَّما تعرَّضَ للأخطار ، ورُبَّما احتاج

---

(١) يئز : يحدث صوتا يشبه صوت الطائرة .

لِنَجدة . . . وكيف لم يَخطُرْ ببالنا أنه من الضرورىِّ أَن تكونَ بالزورق كَمِّيَّاتٌ احتياطيةٌ من الوَقُود ؟ فلَيْسَ من المَعْقُولِ أن يقومَ عاقلٌ بهذه الرحلةِ دُونَ وقود احتياطىّ » .

٤ — العودة

انبسطَتْ أَساريرُ الصِّبْيَةِ وقاموا هم وسميرٌ إلى الزَّوْرقِ يبْحثُون عن الوَقود الاحْتياطىّ . وقال سميرٌ لأُسامةَ : « ارفعْ هذه الحبالَ ؛ فإنَّ الألواحَ الخشبيةَ التى تحْتَها يُمكِنُ أن تكونَ مَخْزَناً صالحاً » . فسارعَ أُسامةُ إلى رَفْعِ كُومةِ الحبالِ فوَجدَ تَحْتَها أَلواحاً خشبيةً غيرَ مُثبَّتة ، فرَفَعها ، فظهرَ تحْتَها عَدَدٌ من صفائح الوقود مصفوفاً بعضُها بجانبِ بعض . وناولَ أُسامةُ سميراً صفيحتين ، فأَفرغَهُما فى خزّانِ الوَقودِ . وكان الماءُ قد ارْتَفَعَ بسببِ المَدِّ . فتخلَّصَ الزَّورق من الصخور .

أَدارَ سميرٌ مُحرِّكَ الزَّورق ، وأَطلَقَ له العنانَ ، فجرَى مُسْرِعاً فَوْقَ سطح الماء . وبعد قليل قالت أنسامُ : « أَنْصتُوا . إننى أَسْمَعُ أَزِيزَ طائِرة » . ونظرَ الجميعُ إلى السماءِ فَرأَوُا الطائرةَ . وقال سميرٌ : « يَبْدُو أَنها تبْحَثُ عنا » . فقال طريفٌ : « إنها من طائرات الأعداءِ إذًا » . وأَخَذُوا يراقبون الطائرةَ فتْرَةً ، ثم لاحظوا أن الذين فى الطائِرةِ قد رَأَوْهم لِأَنَّ الطائرةَ اتَّجهتْ نَحْوَهم ، وحلقتْ فوْقَهم ثم تحوَّلَتْ نحْوَ الجزُرِ . فقال سميرٌ : « لا شكَّ أَنهم سَيُرْسِلُون أَسْرعَ زوارقِهم خَلْفَنا » فقال طريفٌ : « إِن لَدَيْنا كميَّةً كبيرةً من الوَقودِ ، وإنَّ بيْننا وبيْنهم الآن مسافات كبيرةً » .

وظَلَّ الزَّورقُ يَملسُ على الماء امِّلاسًا سريعًا ، ثم أدركَ سميرُ أن الوَقودَ الذى فى الخزَّان أوشَكَ أن يَنفَدَ . فقال لطريف : « أحضرْ بعضَ صفائحِ الوَقودِ لكَىْ أفرِغها فى الخزَّانِ حتى لا يتوقَّفَ الزَّورَقُ عن السَّيرِ » . قام طريفٌ لإحضارِ صفيحة من صفائح الوَقودِ ولكن . . . . كم كانت المفاجأةُ قاسيةً حينَ وجدُوا الصفائحَ فارغةً . إنها صدمةٌ عنيفةٌ مُحيِّرةٌ .

قال سميرٌ : « لاشكَّ أن بعضَهم قد خَدَعَ خفاجةَ وأخذَ ثمنَ الوَقودِ ولم يَملأْ كلَّ الصفائح ، إنها خُدْعَةٌ دنيئةٌ لا يصنَعُها إنسانٌ على خُلُقٍ كريم » . فقال أُسامةُ : « ولكنها خُدْعَةٌ لا تَجوزُ إلا على أمْثالِ خفاجة من البُلَهاء . لنفكِّرْ فى أمرِنا . نحن ابتعَدْنا الآنَ عنِ الشاطِئ وأصبحْنا فى عرضِ البحرِ فماذا نفعلُ إذا توقَّفَ الزَّورقُ ؟ ! » وقال سميرٌ : « نحنُ الآنَ فى حَرَجٍ شديد ، وفى كَرْبٍ لا يُفرِجُه إلا رحمة من الله » . ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى توقَّفَ مُحرِّكُ الزَّورق . وقال أُسامةُ : « لقد نَفِدَ الوَقودُ » . فقالت كيكى : « استدْعِ الطبيبَ » وسادَ سكونٌ عميقٌ لم يَكُنْ يتخلَّلُه سِوَى صوتِ ارْتِطام الماء بجوانبِ الزَّورقِ . وأسرعت فِئرانُ أسامةَ تَخرُجُ من مخابئِها لِتَستَطلعَ سببَ السكون المُفاجِئ . ولم يَكُنْ سميرٌ قد رآها من زمان . فقال مازحًا : « لقد كَبِرَتْ هذه الفِئرانُ وسَمِنَتْ ، ومَنْ يَدْرِى .... فقد يَشْتَدُّ بنا الكَرْبُ ويَطُولُ زمنُه ، حتى نضطَرَّ إلى أَكْلِ تلك الفِئرانِ ... ؟ » وظنَّتْ أنسامُ وإلهامُ أنه جادٌّ فى قوْلِه ، فصرَختا فى هَلَع . وصاحت إلهامُ : « كيف تقولُ هذا ؟ ! نأكُلُ فِئرانًا ؟ ! إننى أفضِّلُ الموتَ جُوعًا على ذلك . » وقال طريفٌ : « دَعُونا من هذا .

وفكروا فيما يجب أن نعمل لنخرج من هذا المأزق الحرج ... إننى أقترح أن نفعل شيئاً نشغل به أنفسنا حتى تهدأ ثائرتنا بعض الهدوء . تعالوا نجدف ، أو تعالوا نأكل ... أو . . : » فقاطعه أسامة وقال : « إننى أفضل الاقتراح الأخير ، فهيا بنا نأكل » وقال سمير : « لو أننى كنت أعرف أن الوقود سينفد لما اتجهت بالزورق إلى عرض البحر ، ولظللت بالقرب من الجزر » .

ومضى الوقت بطيئاً متثاقلاً ، ولم يظهر أى زورق يتعقبهم ، وتسرب الملل إلى نفوسهم ؛ وتمكن من الصبية ؛ فلم يشعروا بالرغبة فى النوم ، وبدا أن الشمس تميل إلى المغيب ؛ وبدا كأنهم سيقضون ليلة ليلاء على سطح الماء ؛ لا يحسون فيها راحة ولا هدوءا ولا اطمئناناً . . . .

وبعد أن مضى وقت سمعوا أزيزاً خافتاً ، فنظروا إلى السماء . فقال أسامة : « هذه هى الطائرة التى نسمع أزيزها . إنها طائرة مائية . » فقالت إلهام : « ربما كانت هى الطائرة التى رأيناها فى البحيرة » . فقال سمير : « انبطحوا جميعاً على سطح الزورق ولا ترفعوا رءوسكم ؛ إنهم لا يعرفون أنكم صبية صغار . بل يظنون أن معى بضعة رجال ؛ وقد يطلقون النار علينا » . تملك الخوف أنسام ، واستولى عليها الذعر ؛ وأخذت ترتجف . فقال لها سمير : « لا تخافى شيئاً يا أنسام ؛ فإنهم لن يؤذوا الصبية الصغار » ولكن أنسام لم تكن تخاف على نفسها ، بل كانت تخاف على سمير وتخشى أن يلحقوا به أذى .

وازداد أزيز الطائرة — وهى تقترب — ثم حلقت فوق رءوسهم ، ثم هبطت على سطح الماء ، وتوقفت محركاتها . وأحدث هبوط الطائرة موجات جعلت

الزَّورقَ يترجَّح صُعُودًا وهُبُوطًا ، ويتمايَلُ يمينًا وشمالاً ، ولم يَجرُؤْ مَنْ فى الزورقِ على النَّظرِ إلى الطائرةِ الضَّخْمة خَشيةَ انطلاقِ الرَّصاصِ . ثم صاحَ صوتٌ جَهورِيٌّ : « مَنْ هناك ؟ استَسْلمُوا جميعًا ، قفوا ، ارفعُوا أيْديَكم . » فقال سميرٌ للصِّبْيَة : « لا تتحرَّكوا لا تخْشَوْا شيئًا يا أنسامُ . إنهم يستخدمُون مكبرات الصَّوْت ولذلك يَبْدُو الصوتُ مُزْعِجًا مُخيفًا » وجاءَ الصوتُ ثانيةً : « استسلمُوا وإلا نَسَفْنَاكم » وقال سميرٌ : « لا جَدْوَى من المُقاوَمة وإلاَّ أطلقُوا مَدَافِعهم الرشاشةَ على الزَّورقِ » ونهض سميرٌ ورفع يَدَيْه فوقَ رأسه دليلاً على الاسْتسْلام . وسرْعانَ ما أُنْزِلَ قاربٌ من الطائرةِ واتجه مُسْرِعًا إلى الزَّورقِ ، وكان بالقاربِ ثلاثةَ رجال ، أمْسكَ أحدُهم بمسدَّس فى يَده ، وانتظرَ الصِّبْيَةُ فى أماكنهم وهم فى خوْف من أنْ يطلِقَ الأشرارُ الرصاصَ على سميرٍ فيقتُلوه ، وازداد اقترابُ القاربِ ، ثم صاحَ الرجلُ الذى يُمْسِكُ بالمُسدَّس : « إنه سمير ! لماذا لم تستقبِلنا ولم تَطمَئنَّ إلينا ؟ إن عدمَ ارتياحك لمَقْدَمنا جعلَنا نظنُّ أنك من أفراد العصابة » سمعَ سميرٌ هذا ، فَهدأتْ نفسُه ، واطمأنَّ قلبُه ، وصاح : « نبيل . . . أهو أنتَ ؟ هل تسَلَّمْتَ برقيتى ؟ » وهمَّ الصِّبْيَةُ واقفين عندئذ ليُشاهدوا ما يحدُثُ . فقال لهم سميرٌ : « هذا نبيلٌ زميلى » ووصل القاربُ إلى جوار الزورقِ . وقال نبيل : « نعم . لقد تسلَّمتُ برقيَّتك ، ويُخيلُ إلىَّ أنك لم تَتَلقَّ برقيتى . فقد سألْنَاك عدَّةَ أسئلة ، ولكنك ظَلَلْتَ ترددُ رسالتك مرَّةً بعدَ مرَّةٍ من غيرِ أن تُجيبَ عن أسئلتنا لنَبْحَثَ عن تلك البُحيرةِ التى أخبرتَنا عنها ، وفى طريقنا لمَحْنَا زورَقكم ، فهبَطْنا لِنستطلعَ الأمرَ » فقال

إنه سمير . لماذا لم تستقبلنا ، ولم تطمئن إلينا ؟

سميرٌ : « لقد نَفِد وَقودنا ، وكنا نتوقَّعُ أن يُرسلَ الأعداء زورقاً أو طائرةً مائيةً في أيّ وقت للقَبْض علينا » فقال نبيل : « انتقلوا إلى قاربي لنذهب إلى الطائرةِ . . هل يَخافُ أصدقاؤكَ الصِّبْيَةُ من ركوب الطائرةِ ؟ » فقال أسامةُ : « لا إننا مُعتادُون ركوبَها . » ونزل الجميعُ إلى القارب وهم لا يُصدِّقُون أنَّهم قد أُنقِذُوا . فلما وصل القاربُ إلى الطائرة المائية الضخمة عاوَنَ سميرٌ ونبيلٌ الصِّبْيَةَ على الصُّعود إليها ، ثم صَعدَا بعْدَهم ، وكذلك فعَلَ الرجُلان الآخَران وبعْدَ لحظات انزْلقَتْ الطائرة على صَفْحَة الماءِ ؛ ثم طارَتْ في الهواءِ وهي تُحلِّقُ كأنها طائرٌ بحريٌّ ضخمٌ ، تاركَةً زورقَ خفاجةَ تداعبُهُ الأمواجُ في انتظارِ أحد زوارقِ خفرِ السواحلِ لـكَيْ يعودَ به . وقال نبيلٌ : « أيْنَ تلْكَ البُحيرةُ ؟ إنني أوَدُّ أن أرَاها لـكَيْ أُحَدِّدَ مَوْقعها على خرائطنا . هل يستطيعُ هؤلاءِ الصِّبْيَةُ أَنْ يتَعرَّفوا عليها إذا رَأَوْها من الجو ؟ » فقال طريفٌ : « أَجلْ إنَّنا نعرِفُ مكانَها ، ونستطيعُ تحديدَه تحديداً دقيقاً ، ولا أستبْعِدُ أننا نسْتطيعُ رُؤيةَ طُرودِ الأسْلِحةِ تحْتَ الماءِ ونحْنُ على هذا الارْتفاعِ وخاصةً أنَّ مياهَ البُحيرةِ هادئةٌ وصافيةٌ » .

وبَعْدَ أن طارت الطائرةُ مُدَّةً من الزمنِ ظهرَتِ الجزُرُ ، ورأَى الصِّبْيَةُ عدداً كبيراً منها ، ونظرَ أسامةُ فرَأى البُحيرةَ ، فأشارَ إليها وقال : « هذه هي البُحيرة ، هِي الواقعةُ بينَ هاتَيْنِ الجزيرتَيْنِ ، ويُحِيطُ بها حاجزٌ صخْرِيٌّ من جميع جوانبها الأُخرى » .

وحلّقَ الطيّارُ بطائرتِه على ارتفاعٍ مُنْخفضٍ فوقَ البُحيرةِ ، ونَظرَ أُسامةُ ثم صاحَ : « انظرُوا ، هذه هى طرودُ البنادقِ تَراها العين تحْتَ الماء ، لقد شاهَدْنا أفرادَ العصابة وهم ينقلُون بعضَها بطائرتِهم المائيةِ » فقال نبيلُ : « لقد أصبح لَدَيْنا عددٌ لا بأسَ به من الشهُودِ . هل هم نفسُ الصِّبْيَة الذين كانوا معك فى مُغامَرَتِك السابقة ؟ » فقال سميرٌ : « نعم وأنْتَ لا تستطيعُ أن تُبْعِدَ المُغامرات عنهم » .

وتركت الطائرةُ البحيرةَ واتَّجهَتْ إلى الجزيرةِ التى كان سميرٌ سجيناً فيها ، فلمّا وَصلوا إليها قال طريفٌ : « إننى أرَى زورقَيْنِ من زوارق العصابة . . . ما مصيرُ خفاجة يا تُرَى . . ؟ » فقال سميرٌ : « سنُنْقذُه عندما نقبضُ على هؤلاءِ الأشرارِ تجّارِ الحروبِ والدمارِ » فقال أُسامةُ : « أَليسَ من المُحْتَملِ أن يهْرُبُوا قبلَ أن نقبِضُوا عليهم » فابتسم نبيلٌ وقال : « أرسَلْنا إشارةَ لاسلكيةً إلى القيادة ، وسرْعانَ ما يَصلُ أسطولٌ من الطائرات المائيةِ والزَّوارقِ المُسلَّحةِ السريعةِ ، ولنْ يكونَ هناكَ ظِلٌّ من أَمَلٍ لأىٍّ فردٍ من أفرادِ العصابةِ فى الهرَبِ » .

أخذت الطائرةُ تبتَعِدُ عن الجزيرة . وقال سميرٌ : « إنهم أشرارٌ خُبثاء . وطالما وضعُوا أمامى أدلةً مُضلِّلةً لِكَىْ أتتبَّعها حتى كدْتُ أَيْأسُ من القبض عليهم » فقالت أنسامُ : « لا شكَّ أنهم دُهشُوا كثيراً عندما رأوْكَ هنا » .

وفى هذه اللحظة كانت الطائرةُ تطيرُ فوق الجزيرةِ التى وصلوا إليها أوّلاً ، فصاحت إلهامُ : « هذه هى جزيرة الطيورِ ، وهذا هو الخليجُ الصحرىُّ الضيّقُ

وهذا هو المكانُ الذى أَوَقدْنا فيه النار » وقال أسامة : « هو المكانُ الذى كانَتْ فيه خِيامُنَا التى اقتلَعَتْها العاصفة » .

وهَبَطَ الطَّيَّارُ بالطائرةِ لِكَىْ يَتَمَكَّنَ الصِّبْيَةُ من إلقاء نظرة أخيرة على الجزيرة وعلى طيُورِها . وقال أَسامةُ : « إن لدَيْنا كثيراً من الأخبار لنقُصَّها على والدتِنا . يا تُرَى ! كيف حالُها الآنَ ؟ » فقال نبيلٌ : « إنها بخيرٍ ، وستتحَسَّنُ حالتُها كثيراً عندما تَصِلُ إليها الرسالةُ اللاسلكيةُ التى أَرسلناها » فقالت إلهامُ : « هل أَرسَلتُم لِتُطَمْئِنُوها . . . هذا لطيفٌ منكم . . » فصاحت كيكى : « قِطَّة قطيفة لطيفة . . » ثم انطلقَتْ تضْحَكُ بصوت عالٍ جَعَلَهم يُغْرِقُون فى الضَّحك .

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦